العمل العمرانى
في ضوء القرآن الكريم
والسنة الشريفة

الناشر



www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

مصطفى الدناصوري

التصميم الداخلي

وليد محمد

دار النخبـة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2016 - 26691
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 26 - 8

العمل العمرانى
في ضوء القرآن الكريم
والسنة الشريفة

الأستاذ الدكتور
محمد أبو زيد الفقي

٢٠١٧



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الهادي الأمين، أول العابدين، وقدوة العاملين، نهض بأنفس أصحابه فزكاها، ونهض بالحضارة الإنسانية فجلاها، فجمع بين الدين والدنيا؛ فجعل من الالتزام الشرعي تنظيمًا للدنيا، وجعل من نماء الدنيا قوةً لحراسة الشرع، نهى أصحابه عن القعود والتسول بالسؤال، وأرشدهم إلى أن تملك الدنيا والسيطرة عليها فيه صلاح للحال والمال.. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وعلى من نهج نهجهم وسلك طريقهم إلى يوم البعث العظيم.

وبعد:

فقد ألفت هذا البحث في فائدة العمل الدنيوي، في خلافة الله تعالى في الأرض، وحماية الشرع، والدفاع عن الحق، وقد جاء هذا البحث بتوفيق الله تعالى في وقته، فحرب المستقبل القريب ستكون على الماء والرغيف، وهكذا كان النصر في غزوة بدر من أسبابه السيطرة على الماء، وهو درس استوعبه العدو ونسيه الصديق.

وقد جاء هذا البحث في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: العمل العمراني في القرآن الكريم.

الباب الثاني: بعض المصادر الفكرية للعمل العمراني في الإسلام.

الباب الثالث: العمل العمراني في السنة الشريفة.

وتبقى ملاحظات على منهاج هذا البحث:

الملاحظة الأولى:

يؤكد هذا البحث أن العمل الدنيوي ليس هامًّا في حياة الأمة الإسلامية وأفرادها فحسب، بل هو جزء من عقيدة هذه الأمة، فالمسلم المسافر لمصالحه الدنيوية – مسافة القصر – يحق له أن يفطر في نهار رمضان، ويصوم في وقت آخر بعد رمضان، ويجوز له أيضًا أن يقصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين فقط، ويمكن أن يجمعهما أيضًا.

فيصلي الظهر مع العصر جمع تقديم أو تأخير بحسب ظروف عمله وسفره، ويصلي





المغرب مع العشاء جمع تقديم أو تأخير بحسب ظروف عمله وسفره، وهكذا: تُقصر العبادة وتُؤَجل من أجل السفر للعمل الدنيوي، وتصبح الدنيا مكملةً للآخرة في منظومة واحدة، وعلى هذا النهج سار النبي (ﷺ) وأصحابه الكرام؛ فملكوا الدنيا وسيطروا عليها، ومن ثم استحقوا ملك الآخرة ووعد ربهم سبحانه وتعالى بالخلد في جنة النعيم.

وما نراه الآن من دعوة للزهد في الدنيا، والإعراض عن الحياة، والنظر للطبقة العاملة من العمال والفلاحين المنتجين بازدراء على اعتبار أنهم من أهل الدنيا ومن العوام، كل هذا ليس فكرًا إسلاميًّا، إنما هو إفراز عوامل كثيرة تاريخية وثقافية، وجغرافية وسياسية.

ولعل أهم هذه العوامل على الإطلاق هو هزيمة الأمة أمام أعدائها في العصر الحديث، والبحث عن سبب للهروب من الهزيمة، ومن ثم تسويغها بعد ذلك، وكان احتقار الدنيا بما فيها من أخذ بالأسباب مسوغًا هامًّا، وتعويضًا نفسيًّا للمسلمين، فطالما أن الأعداء قد ملكوا الدنيا، فلا بأس من تركها لهم، والتركيز على الآخرة، ونسوا أن القرآن الكريم قد نبه الأمة من البداية إلى أن الأعمى في الدنيا عن مصالحه ومصالح أمته سيكون في الآخرة أعمى وأكثر ضلالًا، لأنه قد ضيع الفرصة التي منحها الله تعالى له لخلافته في الأرض وهو مجعول لهذه الخلافة.

الملاحظة الثانية:

إن هذا البحث ليس دعوةً للعمل الدنيوي وترك العبادة؛ بل هو دعوة لهما معًا، فالعبادة نور يشرق في كيان المسلم، فيتحرك به بين الناس: يزرع ويصنع، ويسافر في البحر والبحر وفي السماء وهو مزود بهذا النور، فأنت تعبد فتضيء وتتحرك.

والعبادة في الإسلام دعوة للحركة، فالمسلم لا بد له من المحافظة على كل الفروض والسنن، فإذا نادى المؤذن للصلاة فلا بد أن نذهب، فإذا صلينا فلا بد أن ننتشر في الأرض مرةً ثانيةً؛ وهكذا، فالعبادة فيها حق الله تعالى وتنظيم لأمور الدنيا، لأن المصلي يلتزم شرع ربه سبحانه وتعالى، والعمل الدنيوي الدائب يساعد على تكوين أمة قوية تشق طريقها في الحياة رافعةً رأسها إلى عنان السماء؛ تصلي وتصوم بحرية تامة؛ لا تخشى بطش عدو، ولا تجزع لفقد طعامها وشرابها، لأن العمل الدنيوي النافع قد أعطاها هذه الحرية وبوأها تلك القيادة والريادة.





الملاحظة الثالثة:

إن أسلوب هذا البحث قد جاء سهلًا بسيطًا عن عمد، قد يُؤْخَذ عليه، من المفروض أن يُحْسَب له، لأن هذا البحث دعوة للعمل الدنيوي المنتج الذي يحرس العقيدة، وهي دعوة للجميع فناسبها الأسلوب السهل المتاح.

وقد حاولت جهدي في هذا البحث أن أظهر أهمية العمل الدنيوي في القرآن الكريم، والسنة الشريفة، ولكني أشعر أني لم أحط إحاطةً تامةً بالعمل الدنيوي وقيمته في القرآن الكريم والسنة الشريفة وحسبي أنني فتحت بابًا أرى فيه أملًا كبيرًا لأمة الإسلام، وأدعو غيري من العلماء أن يدخل فيه فلعله يخرج بالخير الكثير.

الأستاذ الدكتور/ محمد أبو زيد الفقي





تمهيد

منذ أن هبط آدم – عليه السلام – إلى الأرض، أصبح العمل هو سبيله الوحيد إلى إقامة خلافة اللّه تعالى في الأرض، وإعمارها والوصول بمشروع اللّه تعالى فيها إلى غايته، وخلف آدم – عليه السلام – من بعده أبناؤه في إعمار الأرض، حتى كان النبي من أبناء آدم لا يخلو من حرفة أو صنعة، وتطورت الحضارة البشرية بفضل عمل الإنسان وجهده الشاق.

وأصبح العمل في كل الحضارات الإنسانية علامة تقدم الإنسان وتميزه، ولم يأت نبي واحد من أنبياء اللّه تعالى بدعوة لترك العمل في إعمار الأرض، بل كانت دعواتهم عليهم السلام، دعوات إلى العمران، وبذل الجهد في تحصيل الرزق، وكانت هذه الدعوة إلى العمل واضحةً في كل رسالات السماء، وكان الأنبياء والرسل قدوةً في ذلك.

وحينما نجد فكرًا دينيًّا يدعو إلى ترك العمل والزهد في بناء الحضارة فلا بد من النظر بريب إلى هذا الفكر، لأنه يصادم المعطيات الدينية، ويجعل خلافة الإنسان للّه تعالى في الأرض لا معنى لها، ولا جدوى لها، وفي مجال العمل العمراني تقدمت أمم وتأخرت أمم، ومن الأمم التي تخلفت في هذا المضمار أمة العرب قبل الإسلام.

العرب:

عاش العرب قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية في ظروف قاسية أجبرتهم على سلوك أنماط من الحياة تتناسب مع هذه الظروف؛ فالجزيرة العربية شديدة الحرارة قليلة المطر، وهذه النوعية من المناخ جعلت حياة العرب تنقسم إلى نمطين:

(أ) البادية:

وتعتمد الحياة فيها على رعي الإبل والأغنام، يرحلون بها خلف المطر القليل، وفي الأماكن التي ينزل فيها، ويتنقلون من مكان إلى مكان، ينصبون خيامهم مدة الرعي التي تتوقف على كمية المطر ثم يرحلون بعد انتهاء المراعي الخضراء إلى مكان آخر وهكذا، وأصبحت حياتهم تدور بين ضرب للخيام في مكان وحمل لها بعد قليل إلى مكان آخر، ويعملون من أوبار وأصواف الإبل والأغنام بعض الملابس والخيام التي تساعدهم على الحياة.





وهم في كل ذلك لا يرتبطون بالوقت ولا يقيمون له وزنًا، لأن أيامهم كانت تمر متشابهةً ثقيلةً، وكانوا يهربون من هذه الحال الساكنة ويطلقون خيالهم يحلق في السماء، فيقرضون الأشعار ذات الأخيلة البعيدة، وكانوا ينفسون عن الطاقة الكامنة بداخلهم والتي وضعها الله تعالى في الإنسان للخلافة في الأرض بالجهد والعمل في صور من الخيال الذي تظهر فيه الحركة وتتوالى، فيحققون انتصارات وهمية، ويجعلون لأنفسهم مكانًا مرموقًا في عالم لا يشعر بهم، ولا هم من عناصره المؤثرة.

وكانت البطولات تظهر في الشعر فقط في كثير من الأحيان، إلا أن هذا النشاط الخيالي من عرب البادية وجد قبولًا من الناحية النفسية، وأن هذه العادات قد أثرت على الذهنية العربية بشكل يكاد يكون وراثيًّا، وقد تختفي هذه العادات من حياة العرب في عصور النهضة والازدهار كما حدث في صدر الإسلام إلا أنها تعود إلى الظهور في فترات الهزائم والنكوص.

(ب) الحضر:

حول آبار المياه القليلة في جزيرة العرب نشأت القرى الكبيرة والمدن، وهي تجمعات سكانية تعيش على التجارة – وهذه التجارة تتلخص في البيع والشراء مع أهل البادية، إلا أن مدينة مكة المكرمة كانت تتبوأ موقعًا مرموقًا في جزيرة العرب بسبب وجود البيت الحرام بها، وتوسطها بين اليمن في الجنوب والشام في الشمال، وكان الحجيج يأتون إليها من كل فج عميق، فكانت التجارة تنشأ فيها بالإضافة إلى رحلتي الشتاء والصيف بالنسبة للتجارة من مكة.

إلا أن الوقت الذي تستغرقه الرحلتان بالإضافة إلى موسم الحج لا يزيد عن ربع العام، وبقية العام يقضيه أهل مكة في قرض الشعر مثل أهل البادية إلا أنهم يزيدون عليهم بعض فنون اللهو والترف، وكل المدن والقرى في جزيرة العرب تحاكي مكة في البطالة وعدم العمل، إن لم تزد عليها في ذلك، لأن لمكة ميزات خاصة لا توجد في غيرها من المدن والقرى في جزيرة العرب.

(ومن هذا يتضح أن العرب قبل الإسلام – وبسبب الظروف الجغرافية والمناخية لم يكونوا – أهل عمل ونشاط، ولم يساهموا في حضارة البشرية بشيء له ذكر، ومن





حياتهم هذه تكونت لهم عادات أهمها:)

١- تفريغ النشاط البشري في الخيال الشعري.

٢- كراهية العمل والركون إلى الدعة والسكينة.

٣- عدم الاهتمام بالمستقبل.

وفي أشعارهم تلحظ كراهيتهم للعمل والاحتراف، فالمرأة المثالية عندهم هي نؤوم الضحى، أي التي تسهر الليل في سماع الشعر وقرضه ومراقبة النجوم في السماء، ثم تنام إلى وقت الظهيرة، وتمر حياتها من أولها لآخرها من غير عمل يُؤَدى، أو نشاط يُذْكَر، وإذا تزوجت وأنجبت فلا بد لها من خدم يقومون بأعباء بيت الزوجية وتتفرغ لسهر الليل ونوم النهار.

والمرأة الجميلة هي المرأة الكثيرة اللحم الثقيلة الوزن التي لا تستطيع الحركة إلا بصعوبة حتى إنها لتقضي النهار كله في زيارة واحدة لبيت جارتها لأنها تمشي ببطء (كما يمشي الوجي الوحل) أي كما يمشي الحيوان الثقيل في الطين الكثير.

وانسحبت كراهية العرب للعمل على العمال أنفسهم، فالطبقة العاملة في عرب ما قبل الإسلام تتكون من الخدم والعبيد والإماء، العمل في جزيرة العرب دليل على الضعة والذلة، وكل الأشعار والروايات تدل على ذلك، فوالد عبلة هو عم عنترة الشقيق يرفض أن يزوج ابنته عبلة لعنترة رغم قوته وشجاعته لأنه ابن أمة، وأن مهمته رعي الإبل والأغنام ولم يشفع لعنترة عند عمه أنه ابن أخيه، وأنه يرعى قطعانًا من الإبل والغنم هي قوام حياة القوم، وبدونها لا يمكن أن يحيا أهل البادية.

الإسلام:

وجاء النبي (ﷺ) برسالته الخالدة والباقية إلى نهاية العالم، وقد زوده الله تعالى فيها بكل شيء يوجه الإنسان إلى العلم والبحث والعمل والإنتاج حتى تهيمن هذه الرسالة على الدنيا إلى آخر الحياة.

وكانت رسالة الإسلام - بحق - بعثًا لأمة العرب من الموت والفناء فبعثهم الله تعالى إلى الإيمان والعبادة والعمل في عمران الأرض وجعل لهم نورًا يمشون به بين الناس، وقادهم النبي (ﷺ) قيادةً لم تضيع لحظةً من الزمن إلا وفيها عمل للدين والدنيا على السواء، حتى





أصبح العمل للسيطرة على الدنيا عملًا للآخرة في وقت واحد. وكان الرجل من المسلمين يقصر الصلاة، ويفطر في نهار رمضان إذا سافر لمنافعه الدنيوية مسافة القصر، وكان يجمع الدنيا وينفق منها الكثير ابتغاء الكثير ابتغاء وجه ربه الأعلى وكذلك المرأة في كل ما تقدم.

وهكذا لم تعد هناك مسافة فاصلة بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، وبهذه الطريقة في فهم الإسلام استطاع المصطفى (ﷺ) أن يؤسس دولةً، وأن يكون أمةً، لها الكلمة الفاصلة في عالمها المغمور.

وجاء الصحابة والتابعون بعد النبي (ﷺ) فساروا على دربه، ينهجون نهج الإسلام القويم، فاتسعت دولتهم حتى غطت رقعةً كبيرةً من الأرض، وأصبحوا المثل العليا في العدل والعبادة وتطوير الحياة، وظل الحال كما كان في عهد رسول الله (ﷺ) حتى دانت لهم الأمم، وخضعت لهم الأرض، وأصبحوا هم القوة الوحيدة المهابة في العالم.

سيطر المسلمون على العالم، وبدأت الأموال تتكدس في خزائنهم، والخيرات تنهال عليهم من كل صوب، وبدأ عزم الأوائل وجلدهم يفتر ويضعف في الأجيال اللاحقة، وظن المسلمون في العصور التالية أن الحياة قد دانت لهم، ولم يعودوا في حاجة إلى بذل الجهد والعرق كما فعل السابقون، وأخذوا يتمتعون بالحياة ويغالون في هذه المتع، حتى غدت وكأنها لديهم هي الهدف الأسمى للحياة.

وبعد القرون المشرقة بدأ العربي يعود إلى الخمول والرغبة في الكسل ونبذ العمل، والعودة لعاداته قبل الإسلام، فترك العمل مرةً أخرى للعبيد والخدم وترفع عنه السادة وتوارثت الأجيال هذا الفكر الآسن، حتى لُقِّب ملاك الأرض في مصر بالأشراف وأولاد الأصول، وأصبح من الصعب؛ بل المستحيل أن تتم مصاهرة بين عامل زراعي وبين صاحب الأرض، وأصبح العمل علامةً على اتضاع الأصل، وترك العمل بما يترتب عليه من نعومة بشرة الرجال وتضخم أجسامهم من أهم علامات الأصالة والعراقة.

ولم يقف هذا الأمر عند فهم العوام للدين، بل تعداه إلى عقول كثير من المفكرين، الذين نبذوا العمل العمراني جملةً وتفصيلًا، وأدخلوا الأمة في غيابات الخيال، وآبار الهلوسات، وساهم هذا الفكر في فصل المسلمين عن واقعهم حتى تركوا الدنيا خلف ظهورهم ونبذوا كل ما يتعلق بها من علم وعمل.





(واغتنم العدو هذه الفرصة السانحة، فهجم على الدنيا بعلوم المسلمين الأوائل وملكها وسيطر عليها، ثم استولى على بلاد المسلمين فوجدها جاهزةً للاحتلال في شوق إليه، ونظر المسلمون – وهم في ذل الاحتلال – إلى عدوهم باحتقار، وقالوا: لقد أعطى الله تعالى الدنيا لأعدائنا لأنه يكرههم وترك لنا الآخرة تقديرًا وحبًّا. وهذه هي الهزيمة الفكرية التي توارثتها الأجيال حتى بعد جلاء العدو بأعوام كثيرة).

ووجد الأعداء في ذلك فوزًا كبيرًا، فهم يستطيعون توجيه المسلمين عن طريق هذا الفكر من خارج حدودهم، وبدأ بعض طلاب العلم الديني من المسلمين يذهبون إلى البلاد الأوروبية والأمريكية؛ فيحصلون على شهادات الدكتوراه في علوم الدين، وتنحصر هذه الشهادات في الغالب في سير أعلام الزهد، أو في الزهد نفسه، أو في الخلافات بين فرق المسلمين.

وشارك بعض الدعاة في داخل الأمة في تنشيط فكر التثبيط والقعود حتى غدت الأمة ممثلةً في بعض دولها تتسول رغيفها من أكثر أعدائها حقدًا عليها، ومع هذا يظن بعض الدعاة الآن: أننا بتسولنا وتخاذلنا، سنحصل على مقاعدنا في جنة الخلد بيسر وسهولة من غير سؤال معاقب أو عتاب متسائل، وهل سيسامحنا رسول (ﷺ) في أمة كونها ونماها وأرساها فخلفناه فيها، فنخرنا عظامها وأمتناها؟

***





الباب الأول:

العمل العمراني في القرآن الكريم

لم يتحدث كتاب أُنْزِل من عند الله تعالى، أو ألفه البشر عن العمل العمراني كما تحدث القرآن الكريم، فقد جعل القرآن الكريم من العمل العمراني خلافةً لله تعالى في الأرض، وجعله مهنة الأنبياء جميعًا، وسبيل خلاصهم وانتصارهم.

وقد جاءت مادة العمل (عمل، وما يُشْتَق منها) في القرآن الكريم (٣٧٩) مرة، وإذا كان العلم هو ركيزة العمل وأساسه الصحيح فقد جاءت مادة العلم (علم، وما يُشْتَق منها في القرآن الكريم (٨٤٨) مرة.

وإذا كان الفقه هو درجة من درجات العلم، فقد جاءت مادة (فقه، وما يُشْتَق منها) في القرآن الكريم (٢٠) مرة، وإذا كان الفكر هو آلة العلم، فقد جاءت مادة (فكر، وما يُشْتَق منها) في القرآن الكريم (٢٠) مرة، وإذا كان الفعل هو انتقال الفكر من الحيز النظري إلى الحيز العملي؛ فقد جاءت مادة (فعل، وما يُشْتَق منها) في القرآن الكريم (١١٢) مرة، وإذا كانت تراكمات الفعل هي التي تكون الخبرة التي تتمحور إلى قواعد عامة فيما بعد، فقد جاءت مادة (خبر، وما يُشْتَق منها) في القرآن الكريم (٢٢) مرة.

وعلى هذا فالقرآن الكريم يحمل في لفظه مقومات البناء العمراني للحضارة، ولكن الخلاف بين أبناء الأمة الإسلامية يكمن في فهم مدلول اللفظ.

فقول الله تعالى ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ يفهمها البعض على أن الصالحات هي العبادات، ومن ثم يشعر الذين يفهمون الصالحات على أنها العبادات بأنهم معفون من العمل العمراني لأن القدوة في نظرهم والمثل الأعلى هم الذين يوقفون حياتهم على العبادات فقط.

وهذا الفهم يجعل الأمة كلها تستريح من عناء مكابدة الحياة، وتركن إلى الدعة، ولا تلقي بالًا لتفوق الأمم الأخرى عليها، مع أن الذي يمعن النظر والفكر في هذا النص القرآني





يجد أن العبادات داخلة في الإيمان بالله تعالى، لأن الله تعالى يجعل فلاح المؤمنين وعنوان إيمانهم هو الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، وهو الكلام الذي يعطل الإنسان عن عمله ولا يعود عليه بالنفع، وفعل الزكاة، وهو إخراجها بفاعلية جعلها نافعةً لأخذها.

وهكذا نجد أن العبادات تشكل عناصر الإيمان في القرآن الكريم كله، ويبقى أن عمل الصالحات هو العمل العمراني الذي يحقق منافع البشر، وينهض بخلافة الله تعالى في الأرض، فزراعة الأرض صالحة، وإنشاء المصانع صالحة، والبحث عن المعادن في الأرض صالحة، والطيران في السماء لتيسير السفر، والبحث في الفضاء صالحة، وكل عمل يقوم به الإنسان لخدمة الحضارة وإقامة العمران صالحة، وهكذا تكتمل الصالحات لكل المؤمنين العابدين الموحدين.





الفصل الأول:

العمل فطرة

ويخبرنا القرآن الكريم أن العمل جزء من تكوين الإنسان وفطرة فيه، ولقد حذر اللّٰه سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وقال له لا تطع الشيطان لأنه سيخرجك من الجنة، من المكان الذي تعيش فيه من غير أن تبذل جهدًا في تحصيل طعامك وشرابك وفي تجنب البرد وحرارة الشمس إلى حياة تقوم على جهدك وعملك.

وهذه الإشارة القرآنية تنبهنا إلى أن العمل والكدح جزء من فطرة الإنسان السوي، وعندما أطاع آدم وزوجته – عليهما السلام –الشيطان وأكلا من الشجرة الممنوعة ظهرت لهما أعضاؤهما التناسلية، وبدأ هو وزوجته في ستر تلك الأعضاء، وكانت هذه هي البداية المبكرة جدًّا لصناعة الملابس عند الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، ومن ثم بدأت حياة آدم وزوجته تعتمد على عملهما وعلى جهدهما، وتوارث أولادهما هذه الميزة للإنسان على الحيوان، وهي ميزة العمل لبناء الحضارة وتحقيق الخلافة.

فالعمل اليدوي – العمران – الدنيوي كما يسميه بعض الدعاة ليس شيئًا ندعو له المسلمين لتأمين حاضر الأمة ومستقبلها، بقدر ما هو جزء من تكوين الإنسان ومن صميم رسالته وجوهر فطرته، ولذلك فهذا البحث ليس دعوةً للعمل فحسب، بل هو كشف للقدوة العملية الكامنة في داخل الإنسان المسلم، والتي ترتبط بعقيدته الكلية وتُعْتَبر أساسًا من أسسها.

﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ والعمل في القرآن الكريم يُوصَف بالصلاح، وهذا الوصف يحدد طبيعة العمل العمراني الإسلامي، فهو عمل يقوم على الجهد البشرى الشريف، وهو عمل مثمر مفيد للفرد والجماعة على السواء، وهو عمل لا يسبب ضررًا للآخرين، ولا يعتمد على استغلالهم، ففي المجتمعات الرأسمالية يدور دولاب العمل على أساس استغلال





أصحاب رؤوس الأموال لجهد العمال، وإعطائهم أقل من جهدهم المبذول، وفي المجتمعات الشيوعية تتسلط الطبقة العاملة على المجتمع، وتلغي الفروق الفردية، والكفاءة العملية، وتصادر الفطرة، وتدمر بواعث الأمل، وتحفز الفرد على العمل في داخل الإنسان.

فالعمل عند غير المسلمين يقوم على إلحاق الضرر بالغير، أما العمل عند المسلمين فإن باعثه الأول: هو تحقيق خلافة الله في الأرض، وثمرته هي السعادة للفرد والجماعة من غير ضرر ولا ضرار، فوصف العمل بالصلاح ليس شيئًا تم بمحض الصدفة، ولا بضغط ضرورة لغوية، وإنما هو وصف جوهري للعمل، فالعمل الصالح عمل مفيد مثمر، لا يحمل ضررًا لصاحبه، ولا للجماعة التي يعيش فيها.

العمل البشري:

والقرآن الكريم يخبرنا أن الله تعالى ينفذ مراده في عمارة الأرض عن طريق الجهد البشري، وهذا قانون ثابت في كل القرآن الكريم، ولا يمكن تغيير هذا القانون إلا في حالات المعجزات التي تؤيد الأنبياء عليهم السلام، أو فيما يتعلق بالمسائل الكونية الكبرى التي يتولى الله سبحانه وتعالى تسخيرها للإنسان، مثل حركة الكواكب والأجرام السماوية، والرياح، والأمطار، وغير ذلك من الأشياء التي لا يقدر عليها الإنسان.

فالله تعالى ينزل الأمطار ويترك للإنسان مهمة استغلالها في الشرب، وفي الزراعة، وفي كل الأغراض الأخرى التي تهم الإنسان، فإذا تكاسل الإنسان وترك استغلال ماء الأمطار فالله تعالى لا يفعل له شيئًا بل يتركه يندثر كسائر الحيوانات المنقرضة.

١- **وفي الصراع بين المؤمنين والمشركين:** يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) بأن يخبر المشركين بأن انتقام الله تعالى قادم لا محالة، ولكنه سيكون بطريق مباشر من الله تعالى، أو عن طريق المؤمنين.

﴿يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا .....﴾ سورة التوبة: (٥٢)؛ أي: عذاب الله تعالى للمعاندين يأتي عن طريقين: إما أن يأتي من الله تعالى مباشرةً، أو يأتي بجهد وعرق ودم المؤمنين في ساحة القتال. وهذه الآية القرآنية المباركة لا ترفع الالتزام عن





المؤمنين في صراعهم ضد أعداء الله تعالى، بل تجعل من هذا الالتزام فرضًا واجبًا على المؤمنين، وفي كل المعارك التي ترك فيها المسلمون الاستعداد للقتال عن طريق القوة، ولجؤوا إلى الدعاء إلى الله تعالى أن ينصرهم من غير جهد مبذول منهم، خُذِلوا وهُزِموا في هذه المعارك، أما المعارك التي انتصر فيها المسلمون فهي المعارك التي أخذت من الجهد والعرق والاستعداد النصيب الأوفى، ثم اتجه المسلمون بعد ذلك إلى ربهم سبحانه وتعالى؛ فكان النصر والظفر للمسلمين والخذلان والهزيمة لأعدائهم.

٢- **وفي الحصول على الطعام:** يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ يس: (٣٥).

في هذه الآية الكريمة يرشدنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن الطعام الذي يتناوله الإنسان يأتي إليه من مصدرين: الأول يأتي من ثمار الأشجار التي خلقها الله سبحانه وتعالى، وهيأها لطعام الإنسان. والثاني: يأتي من خلال عمل الإنسان وكدحه وسعيه في الحياة، وهذا العمل يُعْتَبر منةً من الله سبحانه وتعالى يمتن بها على الإنسان، لأن عناصر العمل تأتي من العقل السليم والجسد السليم، والفهم الجيد لطبيعة العمل المنتج المؤدي إلى خير الإنسان.

٣- **وفي الجهد المبذول في العمل:** يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ سورة الشرح: ٧.

يأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله النبي المصطفى (ﷺ) أن يواصل جهده المبذول في العمل، فيقول له إذا فرغت من عمل فاستأنف عملًا جديدًا، ولكن التعبير بـ (فانصب) يؤكد أن الله تعالى يطلب مواصلة الأعمال المجهدة، لأن النصب: غاية الجهد والأعمال التي تُؤَدى بجهد هي الأعمال التي تقوم عليها الحضارة، وهذا التوجيه الإلهي يحبذ أن لا يكون الإنسان فارغًا أبدًا، وتعرف قيمة هذا التوجيه عند الدراسة الرأسية لسلبيات الفراغ، والدراسة الأفقية لنتائجه، فليس هناك خطرٌ أشدَّ فتكًا بالإنسان من الفراغ، ومن هنا جاء الطلب بمواصلة العمل والانتقال من العمل إلى العمل أيضًا وليس غير ذلك.





٤- يتحدث الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عن تسخيره للكون لخدمة الإنسان:

- فالجبال (أوتادًا) لتثبيت الأرض وتثبيت الغلاف الجوي النافع للإنسان.

- والأرض جعلها (مهادًا) لسهولة حركة الإنسان عليها لتساعده سهولة الحركة على العمل المنتج.

- وجعل النوم (سباتًا) ليتمكن الإنسان من أخذ قسط من الراحة بعد عمله المجهد.

- والليل (لباسًا) للحفاظ على توازن الإنسان.

- والنهار (معاشًا) أي مهيأ للعمل الدائب من أجل تطور الحياة، أي تعملون لمعاشكم.

- وجعل السموات والأرض (سبعًا شدادًا) ليحض الإنسان على البناء والعمل، فالله تعالى يبني وهو لا يحتاج للبناء، فمن باب أولى أن يبني الإنسان لأنه في حاجة ملحة إلى البناء.

- وجعل الشمس (سراجًا وهاجًا) لكي تمد الإنسان بالضوء والدفء، والأشعة اللازمة لحمايته من الميكروبات والجراثيم وإنضاج ثماره وزروعه.

- وأنزل من السماء (من السحاب) (ماءً ثجاجًا) ماءً متدفقًا لكي يستخدمه الإنسان في ري الأرض بعد تجهيزها للزراعة.

كل هذه النعم لا يتصور عاقل أنها جاءت مصادفةً، ولكنها تُعَد على الإنسان لأنها أُعِدت له، وسوف تُحْسَب له إذا استغلها، وسوف تُحْسَب عليه إذا لم يستغلها.

الإفادة الجيدة من هذه النعم تتوقف على استغلال الإنسان لها.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في سورة عبس (٢٤-٣٢): ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن خطوات إنتاج الطعام والغذاء للإنسان والحيوان، وقد يُسِّرت هذه الأمور للإنسان في بداية الحضارة الإنسانية، فالماء ينزل من السماء، والأرض





تنبت الخير بإذن ربها سبحانه وتعالى، ولكن كثيرًا من هذه الخطوات يشارك فيها الإنسان؛ مثل شق الأرض وبذر الحب، ورعاية الحقول والحدائق، ومع هذا فيصح نسبتها إلى الله تعالى بملكيته سبحانه وتعالى للأرض، والإنسان ينفذها بمشروعية الخلافة، ويمكن أن يُفْهَم من هذا النص بعد ذلك ما يلي:

(أ) إن الطعام كان يُنْتَج من غير جهد بشري في بداية التاريخ وعندما أراد الإنسان التنوع في غذائه بدأ في زراعة ما يريد زراعته من النباتات.

ومع هذا **فالمرحلة الأولى**: الإنتاج بفعل الله تعالى المباشر.

والمرحلة الثانية: الإنتاج بواسطة الإنسان، ليس بينهما تعارض، فالرجل يؤدي العمل بنفسه، أو يستأجر غيره لأدائه، وهو محسوب له في الحالتين، ويتضح من هذا أن العمل الدنيوي في الزراعة والصناعة ليس من قبيل الأعمال التي تعود على الإنسان بالخير في الدنيا والآخرة، مثل العبادات، ولكنه – أي العمل الدنيوي – يزيد على هذا أنه تنفيذ لمراد الله سبحانه وتعالى، وإنجاز لمشروعه في تطوير الحضارة الإنسانية.

(ب) والنص القرآني بعد ذلك يلفت نظر الكسالى المتواكلين إلى أن الطعام لا ينزل من السماء جاهزًا، ولكنه يحتاج إلى جهد في شق الأرض وبذر الحب، وتعهد الأرض بالري والخدمة حتى ينتج الزرع حبه وثماره.

وقد فعل الله تعالى ذلك للإنسان، وهو في بداية خطواته على الأرض وما زال يفعل ذلك في أي مكان على الأرض، لم تكتمل فيه خبرة الإنسان بالزراعة، وفي المكان الذي يتسلح فيه الإنسان بالعلم والخبرة، في هذا المجال يوفقه الله سبحانه وتعالى إلى إنتاج غذائه بنفسه، وإن كانت أصعب عمليات الزراعة – وهي الخلق – لا تتم إلى بقدرة الله تعالى المباشرة، ويبقى للإنسان جهده وعرقه وخلافه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النحل (٨): ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. في هذه الآية يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن النعم الأولية التي يهيؤها الله تعالى للإنسان لتساعده في خلافته وبناء حضارته.





ولكن حياة الإنسان تتطور، وتزداد حاجته يومًا بعد يوم إلى الاتصال بغيره، وقد يكون هذا الغير في بلد قريب فيذهب إليه بالخيل والبغال والحمير، وقد يكون هذا الغير في بلد بعيد، وفي دولة ثانية أو قارة ثانية، عند ذلك يصبح من المستحيل عمليًّا اتصال الإنسان بالإنسان بهذه الوسائل البدائية، إلا إذا أراد الإنسان أن يضيع حياته وجهده ورسالته في الحياة، وفي رحلة واحدة، وتُرْكَب الخيل والبغال والحمير من أجل الحرب بين الشعوب.

فإذا استحدث شعب من الشعوب وسائل أخرى للحرب مثل العجلات الحربية والعربات والمدرعات والدبابات، يكون استعمال هذه الوسائل – الخيل والبغال والحمير – في الحرب من باب إلقاء النفس في التهلكة. ومن هنا جاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ليفتح للإنسان آفاقًا أخرى؛ يفكر فيها ويحاول أن يصل إليها حتى يصل إلى وسائل نقل تناسب تطور حياته وتقدمها.

وقد وصل أولئك الذين فهموا هذه الرسالة على وجهها الصحيح إلى احتلال الكواكب والوصول إليها بسفن الفضاء، أما الذين خاصموا الفهم الصحيح لكل شيء في الحياة، فإنهم ما زالوا يعتزون بنوقهم وجمالهم؛ حتى أن بعضهم ينقلها معه بالطائرات لكي يركبها ويشرب لبنها في البلاد التي يصل إليها لحضور بعض المناسبات، وقد تكون له حجة فيما يفعل، ومن الممكن احترام هذه الحجة في بعض الشعوب.

ولكن الحقيقة الناصعة تؤكد لنا أن هذه الأعمال من باب السير عكس تطور الحضارة الإنسانية، وهذا المسافر عكس التاريخ سيصل بعد لأي إلى واد سحيق، ويتلاشى فيه كما يتلاشى الزبد فوق صفحة الماء.

وكل وسائل النقل والحركة السريعة صنعها الإنسان، ومع هذا يقول الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾وهذا يوضح لنا أن عمل الإنسان يُضَاف إلى الله تعالى بطريق الخلافة على اعتبار أن علم الإنسان هبة من الله تعالى، وإتقانه لعمله يقع في عين رضا الله سبحانه وتعالى.

وفي سورة النحل أيضًا (٦٨، ٦٩) يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ





مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

في هذا النص أوضح دليل على قيمة العمل الدنيوي وحتميته في تطوير الحياة، فالله تعالى يأمر النحل – أمر تكوين – أي إعدادًا للمهمة – بالعمل وبذل الجهد في بناء بيوتها فوق الجبال وفي داخل الشجر، وفي الخلايا التي يهيئها لها الإنسان، ثم يأمرها بجمع الرحيق من كل الثمرات من زهورها.

ويقول لها: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾، وهذه السبل هي العمل، لأن النحل يقطع مسافات كبيرة لإنتاج كمية قليلة من العسل، أما تحويل غذاء النحلة في جوفها إلى عسل فيه شفاء للناس، فهذا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

والله سبحانه وتعالى لا يحدثنا عن النحل من باب أنه – تعالى – يخبرنا بحاله، ولكنه بهذا الحديث يأخذ بأيدينا إلى طريق العمل طريق النجاة، ويلهم عقولنا الحكمة الخالدة في الكون، وهي أن الإنسان خُلِق للعمل، فالعبادة عمل والعمل عبادة، ولا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر.

وعندما يقف الإنسان أمام خلية للنحل ويحاول فهم ما يدور بداخلها يُصَاب بالذهول، ويدرك أن الإنسان مهما بلغ من نشاطه فهو كسول، ويدرك أن الله تعالى في توجيه الإنسان إلى دراسة نشاط النحل إنما يحفز نشاط الإنسان نفسه ويهديه إلى طريق الحياة الكريمة التي يريدها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ويقول له لا تكن أقل من النحلة، وأنت تملك عقلًا وعلمًا وقدرةً لم تُوَفر لها، فكيف استجابت هي لفطرتها العملية ونفذت مشروع ربها فيها، وأنت لا تنفذ مشروع الله تعالى فيك مع أنك المسؤول عن المشروع العام لخلافة الله تعالى في الأرض وتطوير الحياة.

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النحل ٧٤ – ٧٦: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا





حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

في الآيات الثلاثة السابقة عدة ملاحظات:

(أ) في الآية الأولى: يقول الله تعالى: يا أيها الإنسان لا تغير مهمتك التي خُلقت لها – وهي الخلافة – وتتمثل في صور أخرى غير التي أمرتك بها لأني أعلم بما يصلحك وأنت لا تعلم، والذي يؤكد هذا الفهم لهذه الآية ما يُفْهَم من سياق الآيتين الأخيرتين.

(ب) وفي الآية الثانية: يضرب الله تعالى المثل لما يريد وما لا يريد، فالعبد المملوك لا يقدر على شيء ولا ينفع في تطوير الحياة، والقيام بواجب الطاعة والعبادة لأنه مملوك، ويرى بعض المفسرين أن العبد يكون مملوكًا بالرق، وهو أنه يعمل في خدمة غيره من بني الإنسان، ويكون ملكًا له أو مملوكًا له.

إلا أن المعاني في القرآن الكريم ليست محدودةً كما يزعم هؤلاء، ولكن المعنى القرآني يتسع حتى تجف البحار لو كانت أحبارًا تُكْتَب بها معاني القرآن الكريم، ولذلك فمعنى المملوك ينسحب على الانتماءات العصبية والفكرية وغير ذلك، فالذي يعتقد أن مهمته في الحياة هي إشباع شهوته ورغبته هو مملوك لهذا الاعتقاد وذلك المسلك.

والذي يعتقد أن مهمته في الحياة هي البقاء في المساجد، وسعيه في الحياة هو الطواف على مساجد الأولياء لزيارتها، دون أن يكون له فاعلية في الحياة بما يعود بالنفع عليه وعلى أسرته وعلى أمته، فهذا الإنسان مملوك لما يعتقد وهكذا، فالمملوكية منهج حياة، وهذا المنهاج من الأمثال التي لا يحب الله تعالى أن يراها على صفحة الحياة، وهو ينهانا عن ضرب هذه الأمثال، أي إقامتها شاخصةً في الحياة لأنها لا تخدم دينًا ولا دنيا على السواء.

ثم يأتي الله تعالى بالمثل الذي يريده شاخصًا في الدنيا لإقامة الخلافة، وتطوير الحياة، وهو ذلك الإنسان الذي يعبد ويعمل ويكدح ويعرق؛ حتى يتسع رزقه جزاء عمله المنتج، ثم يخرج من هذا الرزق حق الله تعالى لإخوانه من أصحاب الأعذار مثل الفقراء والمساكين والمرضى واليتامى وكل مستحقي الزكاة من أصنافها الثمانية. هذا الإنسان نفع نفسه وغيره وجاء مثله مضروبًا من الله تعالى لا مضروبًا له؛ لأن المثل يوافق مهمة الإنسان وفطرة الإنسان وسر وجوده في الحياة.





وفي نهاية الآية الأولى: يأتي السؤال الخالد: هل يستوون؟ لا؛ فشتان ما بين القاعد الكسول الخامل، وبين العامل الكادح المنتج الذي يحصل المال، وينفق بعضه أو كله في سبيل الله تعالى لتطوير حياة أمته والرقي بها حتى تصل إلى مكانها اللائق بها.

ثم يقول الحق تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ نعم الحمد لله، لأن التفرقة بين الكسول والمتوسل وبين العامل المنتج تُعْتَبر نعمةً من الله – تعالى – يجب حمده عليها. أما إظهار الكسول في صورة الولي الملهم صاحب العلم اللدني فأغلب الظن أن ذلك من وسوسة الشياطين الذين يتربصون بمستقبل هذه الأمة وكل أمة أسلمت وجهها لله تعالى قبل ذلك، حتى يضيعوا الفائدة من خلق الإنسان ويدمروا خلافته لله تعالى في الأرض.

ويقول ربنا في نهاية الآية: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. نعم؛ فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور في فهم العبادة: هل هي تقديس لله تعالى وإعمار للأرض؟ أم هي تقديس فقط حتى نقترب من الملائكة وتتلاشى مهمة الإنسان؟

(ج) في الآية الثالثة: الأبكم الذي لا يقدر على شيء وليست له فاعلية في الحياة وهو عبء على صاحبه حتى وإن كان خادمًا له، فإذا أرسله في مهمة فلا بد أن يقيم على رأسه رجلًا آخر، حتى يوجهه لما يصنع.

وفي هذا يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى تعلم اكتساب القدرة على اتخاذ القرار وتعليم ذلك للآخرين، لأن هذا الشخص الذي لا يعمل عقله، ولا يفكر فيما يستقبل من الأمور يحقق كثيرًا من ألوان الخسارة لصاحبه، لأنه يحتاج إلى من يقوم بتوجيهه في كل خطوة يخطوها، فلو أرسله صاحبه إلى السوق لشراء شيء وأعطاه المال اللازم، وحدد له السلعة المطلوب شراؤها، فإنه يذهب ويشتري أردأ أشكالها، وربما أعطى المال لأي لص سأله إياه، وربما واجهته مشكلة لم تبين له قبل رحيله إلى السوق، وكل هذه الأمور لا يستطيع أن يفكر فيها، ولذلك لا يحقق أي نوع من الكسب لصاحبه.

ويقول الله تعالى: يصف منهجه: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وفي هذه الآية كثير من العتاب للذين لا يفكرون ولا يبتكرون ولا يبدعون؛ لأن القرآن الكريم يجعل هذا الإبداع والفكر





من نشاط الإنسان الأساسي، ويصف من يتركه بأنه من الصم والبكم، ويحدد منهاجه في الحياة: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

ثم يقول ربنا وهو يفاضل – عن علم – بين الأبكم والمفكر الذي يخطط للمستقبل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، لا يستوي الأبكم والمفكر الذي يأمر بالعدل مع الاستقامة، لأن الأمر بالعدل يستلزم قوةً في الفكر تستحضر ما ينفع الناس في حاضرهم ومستقبلهم، ومن يملك هذه الناصية يكون نافعًا لأمته بشرط أن يكون على صراط مستقيم في حياته وسلوكه وفكره.

يقول الله تعالى في سورة الشرح: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾: ٧، يرى كثير من العلماء أن معنى الآية الكريمة: أنه يجب على الإنسان إذا فرغ من عمل أن يبدأ في عمل آخر، لأن حياة الإنسان محسوبة ومحددة، ولا يرضى له الحق سبحانه وتعالى أن يقعد ويتكاسل عن العمل وهو مخلوق له من البداية، والعمل هنا يشمل كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان من أعمال العبادات وأعمال تطوير الحياة؛ فكلها عمل، وكلها إذا ضُبِطت بشريعة الإسلام ترضي الله سبحانه وتعالى.

هذا وما قدمناه في هذا الفصل عن فكرة العمل الدنيوي في القرآن الكريم يُعْتَبر إشارةً صغيرةً في هذا الاتجاه، وتبقى كنوز القرآن حافلةً بالخير وكأنها لم تُمَس، ولعل الله سبحانه وتعالى يعين كل باحث يحاول أن يربط الدين بالحياة، ويكشف له عن أسرار العزة والقوة في القرآن الكريم.



الفصل الثاني:

مواقف عمرانية في القرآن الكريم

الموقف الأول: نبي الله تعالى نوح عليه السلام:

ظل نبي الله نوح عليه السلام يدعو إلى الله تعالى في قومه، تسعمائة وخمسين عامًا، وتكبد في سبيل هذه الدعوة كثيرًا من المعاناة، وكان يبذل جهودًا متناهيةً في سبيل إنقاذ قومه من الضياع في الدنيا والآخرة، ولكن هذه الجهود لم تؤت ثمرتها المرجوة بسبب عناد قومه، وإصرارهم على الكفر، وعند ذلك صدر قرار العزة من العزيز العليم سبحانه وتعالى بتدمير هؤلاء القوم، وذلك بإغراقهم في الطوفان وأخبر بذلك نبيه ورسوله نوحًا – عليه السلام – قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ هود: ٣٦.

هذا عن الإخبار بموقف القوم من الإيمان بدعوته وأن القوم قد انتهوا إلى حالة التمسك بالكفر، وأصبح من غير الجائز الاستمرار في دعوتهم.

وعن الإخبار بالطوفان قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ هود: ٣٧.

هذه الآية تطرح سؤالًا خالدًا: ما هو سبيل النجاة للمؤمنين في الدنيا والآخرة؟

أيكون بالعمل الدنيوي اليدوي ثم الآلي بعد ذلك؟ أم يكون عن طريق التحنث بالعبادة غير المفروضة وترك العمل الدنيوي، وترك المشكلة كلها لله يحلها وتصبح بعد ذلك خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض خلافةً معكوسةً، فالله تعالى استخلف الإنسان في الأرض لعمارتها، وحل مشكلاتها.

لو كانت نجاة المؤمنين في الدنيا تقف عند حد الدعوة لله تعالى وعبادته حق العبادة لكان أولى بهذه النجاة نوح – عليه السلام – فقد دعا إلى الله تعالى فترةً طويلةً: تسعمائة وخمسين عامًا قبل الطوفان، وفترةً أخرى بعده، ومن ناحية العبادة فقد كان



رسولًا نبيًّا، ومع هذا لم تغن دعوته وعبادته عن ممارسته لواجب خلافته، وعمله بيده لكي ينجو هو ومن معه من المؤمنين.

ولم يكن عمله في بناء السفينة مثل أعمال السحرة كأن يشير إلى الخشب فيتحول إلى سفينة، ولم يكن عن طريق بعض الأوهام التي تعشش في أفئدة بعض المسلمين في عصور الانحطاط، إنما كان بناء السفينة بالجهد والعرق، فكان يقطع الأخشاب ويجففها ثم يجهزها، ثم يقوم بتنظيمها وترتيبها ورقمها، ثم يقوم بوضع كل قطعة خشب في مكانها الصحيح.

وقد اتفق المفسرون على أمرين في هذه القصة:

الأمر الأول: طول فترة صناعة السفينة.

الأمر الثاني: كبر حجم وضخامة هذه السفينة.

حتى قال بعضهم: استغرق نوح في عمل السفينة سبع سنين كاملة، وقال بعضهم أكثر من ذلك.

وعن حجم السفينة قال بعضهم: إنها وصلت طولًا إلى ألف وثلاثمائة ذراع. المهم أنهم أجمعوا على طول المدة وكبر حجم السفينة، وعمل ضخم بهذا الشكل يقوم به رجل واحد دليل على أنه لم يذق طعمًا للراحة، وهنا تظهر قيمة أن يصل الإنسان لنجاته بيده، وليس معنى هذا أن الإنسان سوف يستغني بعمله عن ربه سبحانه وتعالى، بل لا بد من توفيق العليم القدير، ولكنه لا يوفق القاعدين المهملين.

وكان من الممكن أن يسلم أن يسلم نوح أمره إلى الله تعالى ويمتنع عن عمل السفينة ويعصي ربه في جانب الخلافة لأنه يتقن طاعته في جانب العبادة، ولكن النتيجة ستكون هلاكه لا محالة، وهذا فرض جدلي لأن الأنبياء لا يعصون ربهم أبدًا، وعملهم الدنيوي جانب من طاعتهم لربهم سبحانه وتعالى.

وقد انشغل السادة المفسرون على اختلاف مشاربهم في هذه القصة بأمرين:

الأمر الأول:

أثر غريب لا صحة له في الصحاح ولا في التوارة ولا الإنجيل، وهو أن عيسى بن مريم – عليه السلام – سأله قومه عن قصة سفينة نوح، فأخذ حفنةً من التراب، وقال: هذه من تراب أحد راكبي السفينة مع نوح، وقال له قم بإذن الله تعالى فقام وحكى عن أوصاف





السفينة، ثم تحول إلى تراب مرة أخرى.

الأمر الثاني:

أثر غريب أيضًا يتحدث عن الحيوانات التي كانت في السفينة وروثها المتجمع في قاع السفينة وكيف أن سيدنا نوح – عليه السلام – ضغط على أنف الفيل فأخرج من إسته خنزيرتين، وكيف أن هذه الخنازير تكاثرت وأكلت روث الحيوانات.

ومن الغريب أن علماءنا الأجلاء من المفسرين أعرض أكثرهم عن العبرة العظيمة من القصة، وهي أن الإنسان مهما كانت منزلته في الدعوة والإيمان بالله تعالى لا بد أن يحل مشكلته بيده وأن يمارس خلافته على الأرض كما أراد الله سبحانه وتعالى.

الموقف الثاني: مريم عليها السلام:

يقول الله تعالى في سورة آل عمران (٣٥–٣٧): ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة مريم (١٦–٢٥): ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

السيدة مريم العذراء نذرتها أمها لخدمة المحراب لأنها كانت لا تنجب، وتمنت أنها لو أنجبت فسوف تجعل المولود خادمًا للمحراب (وهو مكان مثل المسجد) وبرغم أنها أنجبت





بنتًا إلا أنها أنجبت بنتًا إلا أنها أوفت بنذرها، وأرسلت البنت الصغيرة للمحراب للعمل في خدمة رواده، ولعبادة الحق سبحانه وتعالى، ونشأت مريم نشأةً طيبةً في هذا الجو الروحي الذي يكفله لها وجودها في المحراب.

وعندما كبرت جعلتها القرعة تدخل في كفالة نبي الله تعالى زكريا – عليه السلام– وكان يزورها في المحراب لتقديم الطعام والمساعدة لها في خلوتها، فكان يجد عندها طعامًا مختلف الأنواع والأوقات، فكان يجد فاكهة الصيف في الشتاء مثلًا، وكان يسأل الفتاة كيف حصلت على هذا؟ فكانت تجيب بأن هذا الطعام من عند الله تعالى، لأنه يرزق من يشاء بغير حساب وبغير أسباب.

هكذا كان حال مريم العذراء: تعمل في خدمة بيت الله، والله تعالى يتكفل برزقها، إذًا؛ هو رزق مقابل العمل في المحراب! وعندما خرجت مريم من المحراب وأرسل الله لها الملك ليخبرها بأن الله تعالى سيرزقها الولد من غير أن يمسها رجل، وعندما تعجبت من حدوث ذلك، أخبرها الملك أن الله يقدر على كل شيء، وقد خلق آدم قبل ذلك من تراب، من غير أم ولا أب، وعندما يخلق عيسى من غير أب فإن ذلك يكون يسيرًا عن خلق آدم عليه السلام.

وحملت مريم بعيسى عليه السلام، وكثرت الأقوال حول حملها، مما جعلها تعتزل أهل قريتها، وتخرج إلى مكان بعيد عن القرية، وجاءها المخاض، وهو الآلام التي تشعر بها المرأة عند الولادة، وشعرت بقدر كبير من الندم، وبقدر هائل من المسؤولية أمام الناس عن شيء يصعب فهمه، ويتعذر تحمله عند أكثر الناس.

في هذا الجو المشحون بالآلام والندم وضعت السيدة مريم طفلها المسيح عيسى بن مريم، وبعد الوضع شعرت بآلام الجوع وقسوة الحاجة إلى الطعام، واتجهت إلى ربها تطلب منه الطعام، وكان المتوقع أن ينزل عليها الطعام كما كان يأتيها قبل ذلك ولكن هيهات، فقد كان الطعام ينزل لها وهي في المحراب لأنها كانت موقوفةً على خدمة بيت الله – تعالى.

أما الآن وقد خرجا إلى الحياة، والحياة لا طعام فيها من غير عمل فقد كان على مريم في ظروفها القاسية أن تعمل لكي تأكل، ولذلك جاءها صوت من أسفل المكان الذي كانت تضع مولودها عليه يأمرها بأن تهز جذع النخلة حتى تسقط عليها الرطب فتأكل من عمل يدها، فهزت مريم النخلة فتساقط الرطب، وأكلت وشبعت وأرضعت ابنها، ولكنها تركت لنا





أسئلة كثيرةً تحتاج إلى إجابة.

أولها: ما قيمة العمل الإنساني؟ هو جوهر وجود الإنسان وأساس وجوده في الحياة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى مع عطفه على مريم العذراء واختياره لها لميلاد هذه المعجزة إلا أن كل ذلك لم يشفع لها عنده أن تأكل من غير عمل، وحينما كانت في المحراب للعبادة فقط رزقها كما رزق آدم وحواء في الجنة، ولما خرجت إلى الحياة العامة، إلى مكان الخلافة استحال رزقها من غير عمل، لأن العمل المنتج يساوي الإنسان، وإنسان بلا عمل لا يمثل سوى كتلة تشغل حيزًا من الفراغ.

الموقف الثالث: نبي الله تعالى داود عليه السلام:

قال تعالى في سورة البقرة (٢٥٠، ٢٥١): ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة ص (١٧–٢٦): ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾
وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة الأنبياء (٧٨–٨٠): ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا





ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

نشأ نبي الله داود – عليه السلام – في أسرة فقيرة، ولما اشتد عوده عمل راعيًا للغنم ليطعم نفسه وأسرته، وكان يحب العمل اليدوي بشتى أنواعه، وكان يدرب نفسه على الرياضات التي تمكنه من القتال، وصناعة أدوات الحرب، وهو في كل ذلك راع للغنم؛ أي كان يعمل بنظام الوقت الإضافي، أو قل إنه كان لا يترك وقتًا يمر في حياته إلا ويشغله بالعمل النافع، وكذلك فعل كل الأنبياء، لأنهم كانوا يعتبرون الفراغ عطاءً إضافيًّا من الله سبحانه وتعالى لكي يتمكنوا من إنجاز كثير من الأعمال المفيدة في هذا الفراغ.

وفي يوم من الأيام وداود يرعى غنمه تصادف مروره على قتال نشأ بين قومه – بني إسرائيل – بقيادة طالوت – عليه السلام – وبين أعدائهم بقيادة جالوت، وراقب داود المعركة ولكنها لم تنته لصالح قومه بسبب قوة البطل جالوت، ووجد أن الذين يحاربون جالوت ينقصهم المرانُ على الحرب والتدريب لاكتساب الملكات الجسمانية، وأدرك أنه يستطيع أن يهزم جالوت لو أُتيح له أن ينازله ويصارعه، فاستأذن من القائد طالوت، فأذن له، ونزل إلى أرض المعركة، ولكن جالوت أهمله وظن أنه نزل ليعبث، ولم ينظر له كمحارب متدرب بسبب هيئته الفقيرة.

ولكن داود طلب منه أن ينازله وأن يتصارعا أمام الناس فأذعن جالوت بعد جدال لطلبه ونزل إليه، وبدأ التلاحم بينهما، ومن أن أول وهلة أدرك جالوت أنه يصارع بطلًا مدربًا تدريبًا جيدًا، وما هي إلا لحظات حتى انقض داود على جالوت فصرعه وقضى عليه، وانتهت المعركة بعد ذلك لصالح بني إسرائيل، وكان النصر حليفهم.

وبعد شهور قليلة تُوِّج داود ملكًا على بني إسرائيل، فأقام مملكةً قويةً برجالها، غنيةً بمواردها، ولكنه لم يغفل وهو ملك عن حبه الخالد للصناعة، فأعانه الله تعالى على كثير من الصناعات الحربية والمدنية، ولكنه بعد أن استقرت أمور الدولة وكثرت خيراتها وقويت شوكتها زاد شوقه لربه سبحانه وتعالى، فانشغل بذكر الله تعالى عن صناعاته وعن القضاء بين الناس.





ولكن ترك خلافة الله تعالى في الأرض – الزراعة والصناعة –والقعود للعبادة من الأمور التي يعاتب عليها الحق سبحانه وتعالى أحباءه، ولذلك أرسل الله تعالى ملكين إلى داود دخلا عليه المحراب وأبوابه مغلقة، وعرضا عليه قضيةً بينهما. فسأل داود أحدهما ولم يسأل الآخر، لأنه كان في عجلة من أمره ويريد أن يتخلص منهما ويعود إلى ذكره وعبادته.

ولكنهما نبهاه إلى أن تلك الطريقة لا تحقق العدل وأن رعاية أمور الناس والتمكين للأمة في الأمور التي ترضي الله سبحانه وتعالى، وعند ذلك استغفر داود ربه سبحانه وتعالى وعاد إلى صناعاته وقضائه بين الناس. ولكنه لم يلبث أن عاد بعد فترة يغلبه شوقه لذكر ربه سبحانه وتعالى؛ فعاد إلى المحراب ليعتكف فيه.

وهنا أراد سبحانه وتعالى أن يأخذ الملك منه، ويعطيه لابنه سليمان عليه السلام لأن الدنيا لا يملكها إلا من يتعامل معها ويسيطر عليها، أما من يتركها ولا يؤدي دوره فيها كاملًا فإنها تُسْلَب منه وتُنْقَل إلى غيره.

وبعد عدة أيام من اعتكاف داود عليه السلام في المحراب خرج للقضاء بين الناس، فدخل عليه جماعة يتشاجرون ويتصايحون ويتنازعون، وحينما أوقفهم داود بين يديه وسألهم عن نزاعهم قال كبير جماعة منهم: لقد اجتاحت غنم هؤلاء حديقتنا فأهلكتها ودمرتها.

وأراد داود عليه السلام أن يحكم بين الناس بسرعة حتى يعود إلى محرابه وذكره، فقال يا صاحب الحديقة خذ من الغنم ما يعوضك عن خسارتك في حديقتك.

وجاء التجار وقوموا الغنم والحديقة، فوجدوا أن من حق أصحاب الحديقة أن يأخذوا كل غنم القوم وليس بعضها، فأمر داود بنقل الغنم إلى ملكية أصحاب الحديقة.

وخرج أصحاب الغنم في ذعر وهلع، وهم يدركون أنهم تحولوا بهذا الحكم من جماعة منتجة إلى جماعة عاطلة ليس لها عمل، وأدركوا بفطرتهم أن الله تعالى يحب العمل والعاملين، فصرخوا، وسمعهم نبي الله سليمان وكان صغيرًا وقتها، فسألهم، فقصوا عليه ما حدث لهم، ففكر لحظةً ثم قال لهم:

أدخلوا على أبي مرةً أخرى وقولوا: يا نبي الله تعالى؛ إننا نرضى حكم ابنك سليمان في قضيتنا، فابتسم داود – عليه السلام – واستدعى سليمان وأجلسه على كرسي الملك، وقال له: احكم بين هؤلاء الناس، فاستمع سليمان إلى دفاع الطرفين، ثم فكر طويلًا وأصدر حكمه كالآتي:





قال: يا صاحب الحديقة خذ الغنم فارعها وتعهدها، ولك أن تأكل من نتاجها وتشرب من ألبانها وتبيع أصوافها، وتسلمها لنا في العام القادم مثل هذا اليوم من غير نقص، ويا صاحب الغنم خذ الحديقة فابذل جهدك فيها أنت وأهلك وتعهدوها ولكم أن تأكلوا من نباتها وزرعها وثمرها إذا أثمرت وتسلموها لنا سليمةً يانعةً في العام القادم مثل اليوم.

وخرج الطرفان مرضيين بهذا الحكم، وفي هذه اللحظة تنازل داود لابنه سليمان عن حكم بني إسرائيل وعن المملكة التي بناها وشيدها بعرقه وجهده، وعاد لمحرابه حيث يجد متسعًا للعبادة ولمناجاة ربه سبحانه وتعالى.

في قصة داود – عليه السلام – كثير من الدروس التي تنفع أجيال الأمة الإسلامية الحاضرة والقادمة بإذن الله تبارك وتعالى:

(أ) إن داود – عليه السلام – بنى مملكته بعرقه وجهده وكفاحه، ولكنه لما اتجه إلى الإكثار من العبادة التي لم تفرض حركةً لما يجب وأخذ منه الملك ونقله إلى ابنه سليمان – عليه السلام.

(ب) إن علامات انشغال داود – عليه السلام – بالعبادة والمناجاة كانت ظاهرةً في إجابته على الخصمين اللذين دخلا عليه المحراب.

(ج) إن الله تعالى أيد حكم سليمان وأخبرنا في القرآن الكريم أنه أفهمه الحكم الصحيح، وهذا يدل على رعاية الحق – سبحانه وتعالى – لكل نظام يعمل على تطوير الحياة وازدهارها.

(هـ) إن نبي الله تعالى داود لم يشفع له ذكره ومناجاته واعتكافه للعبادة في ترك أمور الدنيا؛ مما أدى إلى أخذ الملك منه.

ولعل هذه القصة تذكرنا بما حدث من المسلمين بعد احتلال اليهود لفلسطين؛ فقد ظل الخطباء على المنابر فيما يزيد على مليون منبر في العالم الإسلامي يدعون على اليهود، ويطالبون من الله تعالى أن يدمرهم. حدث ذلك من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٧.

وكانت إجابة الله تعالى لهؤلاء الكسالى النيام عن الخلافة إجابةً قاتلةً، فقد قام اليهود في صباح ١٩٦٧/٦/٥ باحتلال كل أرض فلسطين، وضعفيها من مصر ومثلها من سوريا ومثلها من لبنان، وشعر العالم الإسلامي كله بخزي وعار لا نظير لهما، وأدرك القادة





العسكريون في مصر وسوريا أن إسرائيل لن تُهْزَم بالدعاء عليها، ولكنها ستُهْزَم بالعمل الشاق والتدريب القاسي والتخطيط الجيد، وقبل ذلك وبعد ذلك توفيق الحق – سبحانه وتعالى – لأنه لا يوفق إلا العاملين، ولا يضيع أجر من أحسن عملًا.

بهذا الجهد الخارق والعزيمة الصادقة والعمل الدؤوب، كتب الله تعالى النصر للجند الذين انهزموا قبل ذلك حين اعتقدوا أن دورهم لا قيمة له وأن الجن من الممكن أن تتولى بدلًا منهم القتال، وحين جاء النصر الكريم في العاشر من رمضان ١٩٧٣/١٠/٦ كان ذلك إيذانًا بتوفيق الله - سبحانه وتعالى – لأن الذين عبروا القناة بالسلاح الجيد والتدريب الشاق، والتخطيط المحكم عبروها أيضًا وهم يهتفون في نفس واحد: الله أكبر.. الله أكبر.. فالله أكبر من التدريب والتخطيط والسلاح والعدد، ولكنه لا ينصر إلا من يعمل ويتقن ويستحق النصر.

الموقف الرابع: نبي الله تعالى سليمان عليه السلام:

قال الله تعالى في سورة النمل (١٦–٤٤): ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ
ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ
رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى
بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ
غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟
لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ
مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟





أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأْسٖ شَدِيدٖ وَٱلْأَمْرُ
إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةٗۚ
وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةٗ تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٖ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾
وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ
إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي
بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٞ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ
لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٞ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا
عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي
غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا
عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن
قَوْمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن
قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.
وقال تعالى في سورة سبأ (١٢-١٤): ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٞ وَرَوَاحُهَا شَهْرٞۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ
ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي
ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

بعد أن أسند أمر قيادة الدولة اليهودية إلى نبي الله تعالى سليمان – عليه السلام – شرع في استكمال بناء الحضارة العظيمة التي بدأها والده – نبي الله تعالى داود عليه السلام – لتحقيق خلافة الله تعالى في الأرض.

وكان نبي الله تعالى سليمان – عليه السلام – رجلًا طموحًا لدرجة كبيرة، وكانت كل الأشياء حوله لا تحقق طموحه في بناء مملكة أرضية يرضى عنها ربه سبحانه وتعالى،





ولذلك طلب من اللّه تعالى ملكًا لا يصل إليه أحد من بعده، وأجابه اللّه – تعالى – إلى ذلك، وأعطاه ملكًا لم يصل إليه أي إنسان في تاريخ البشرية.

ولكن مظاهر هذا الملك لم تكن للتسلية ولا للترفيه كما يظن بعض الناس، فعناصر هذا الملك كانت كلها تدور حول تحقيق خلافة اللّه تعالى في الأرض.

ولما كانت المكتشفات العلمية لم تصل إلى درجة كافية لتحقيق طموح نبي اللّه تعالى سليمان – عليه السلام – في بناء الدولة سخر له اللّه تعالى بعض عناصر الكون، وجعلها في خدمته وطوع أمره.

الناس:

فالناس في دولة سليمان – عليه السلام – كانوا يعملون بكل ما أوتوا من قوة لبناء الدولة، وكان هو المثل الأعلى في الجد والعمل حتى آخر لحظة في حياته.

الحيوانات:

كانت الحيوانات تعمل مُسَخرةً لخدمة أهداف الدولة في العمل والبناء.

الطير:

كانت الطيور أيضًا مُسَخرةً لخدمة هذه الدولة، ويخبرنا القرآن الكريم عن كل ذلك، وأن نبي اللّه تعالى سليمان كان يستعرض عناصر القوة التي تبني الدولة القوية ويمر عليها جميعًا من إنسان وحيوان وطير وجن.

وفي يوم من الأيام اكتشف في ذلك العرض غياب الهدهد؛ وهو طير خفيف الظل جميل المنظر، فسأل عنه فلم يخبره أحد بمكانه، فتوعد الهدهد بالعذاب، إذ كان غيابه هذا من غير سبب وجيه، وبعد أيام جاء الهدهد وذهب إلى سليمان – عليه السلام – وقص عليه سبب غيابه، وأنه كان في مهمة تخدم أهداف الدولة العليا في نشر التوحيد في كل مكان يمكن الوصول إليه، وأخبره أنه كان بأرض اليمن وشاهد قومًا يسجدون للشمس ولا يسجدون – للّه تعالى الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر، وأنهم يعيشون تحت حكم امرأة تملكهم وتحكمهم.

ففرح سليمان بهذه الأخبار، وسُرَّ من حرص الهدهد على العمل، وأن غيابه عن العرض لم يكن كسلًا ولا لعبًا ولا لهوًا، وأرسل معه رسالةً إلى القوم، ثم بعد ذلك حمل أعوان سليمان





– عليه السلام – عرش الملكة – بما وصلوا إليه من علم.

وجاءت الملكة لمقابلة سليمان فوجدت أن عرشها قد سبقها إلى سليمان عليه السلام، ثم بعد ذلك طاف بها في بعض أرجاء المملكة لتشاهد ملكًا عظيمًا، وقومًا في غاية التقدم والازدهار، ولكن لفت نظرها أنهم مع قوتهم وتقدمهم لا يغترون بذلك، ويخضعون جميعًا للّه الواحد القهار، عند ذلك أعلنت إسلامها واعتذرت لربها – سبحانه وتعالى – عن فترة كفرها السابقة، وانضمت مملكة سبأ إلى ملك سليمان – عليه السلام – ليقيم فيها العدل والتوحيد ولينشر فيها البناء والتقدم.

الجن:

الجن من القوى الخفية التي لا تظهر للإنسان إلا إذا تمثلت له، وهي تستطيع ذلك، وقد سخرها اللّه تعالى لنبي اللّه سليمان – عليه السلام – ليستخدمها فيما يعجز عنه البشر، وفيما يخفى عليهم، فلم يكن الاستشعار عن بعد قد اكْتُشِف في وقتها لبيان ما تحت الأرض.

وفي داخل الجبال، فكانت الجن تقوم بمثل هذه المهمة، ثم وقع عليهم العبء الأكبر في بناء الدولة؛ فكانوا يقومون بعمل المحاريب، والتماثيل والجفان الكبيرة، والقدور الضخمة، وقد ذهب المفسرون في تفسير هذه الأشياء إلى أنها كانت ما تحتاجه الحياة في وقتها، لإظهار الرفاهية وعزة الملك.

وعلى وجه الخصوص فسروا التماثيل بأنها نفس التماثيل التي نراها في القصور وفي المعابد، تماثيل للإنسان والحيوان والطيور، وقالوا إن كل ذلك لم يكن محرمًا قبل الإسلام.

ونقول: إن هذا الكلام ليس صحيحًا، من عدة وجوه:

الوجه الأول:

إن التماثيل بمعناها الحقيقي غير مرغوبة في كل الأديان، وتكون محرمةً إذا خيف أن يشركها الإنسان باللّه تعالى في العبادة، وقد قام نبي اللّه تعالى إبراهيم بتكسيرها وجعلها جُذاذًا.

الوجه الثاني:

إن مهمة الجن مع نبي اللّه تعالى سليمان كانت لبناء الحضارة ونشر العمران، فإذا ذُكِرت المحاريب والتماثيل والجفان، والقدور في سورة سبأ، فقد قال اللّه تعالى في نهاية





الآية: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾؛ أي اجعلوا العمل الجاد الذي يبني الحضارة هو شكر الله تعالى على هذه النعم العظيمة.

وهو بذلك يوضح أن المحاريب والتماثيل والجفان والقدور كلها أشياء عملية لتحقيق السعادة للبشر في الدنيا، وتمكينهم من السيطرة على حياتهم.

الوجه الثالث:

إن التماثيل ليس المقصود بها التماثيل المعروفة عند كثير من السادة المفسرين، ولكنها تعني بلغة القرآن الشيء الذي لم يكن موجودًا، ثم تمثل شخصًا أمام العين، والله تعالى يقول: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾؛ أي أصبح موجودًا معها في نفس المكان تراه وتسمعه، فالتمثل يشمل وجود الأشياء ظاهرةً بعد خفائها أو انتقال فكرة معينة من الحيز النظري إلى الحيز العملي الذي يتمثل ويتجسم للناس، ويمكن إدخال كل الإنشاءات والمخترعات تحت هذا التمثل – الشخوص.

والذي يؤكد أن مهمة الجن لم تكن صناعة التماثيل بمعناها المألوف هو قول الله تعالى في صورة ص: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾؛ فقد حصر الحق سبحانه وتعالى مهمة الجن مع نبي الله سليمان – عليه السلام – في بناء الحضارة بصورة واضحة، فهم يعملون في البناء فوق الأرض، وفي الغوص تحت الأرض للبحث عن كنوزها ومعادنها، وكل ذلك لتطوير الحياة.

ولم يكن سليمان– عليه السلام– من عشاق التحف ومن هواة اللهو والعبث، فقد مات– عليه السلام– وهو يتابع عمل الجن في مشروع مهم، ولو علم الجن بموته لفشل هذا المشروع وهرب الجميع، ولذلك بقي ميتًا مستندًا على عصاه حتى انتهى العمل.

وعند ذلك جاءت دابة الأرض لتأكل العصا فيقع سليمان– عليه السلام– على الأرض وتخرج الأعداد الهائلة من الجن لتكشف أن سليمان مات من مدة طويلة وأنهم عملوا كثيرًا جدًّا وهم يظنون أنه حي يتابعهم في عملهم، هذه الحادثة تلخص حياة سليمان – عليه السلام – فهي كانت حياةً مقصورةً على العمل لتطوير حياة الإنسان وبناء حضارته، وخلافة الله تعالى في الأرض، وكل ما طلبه سليمان – عليه السلام – من ملك كان الغرض منه إثراء الحياة وجعلها سهلةً ميسرةً لكل البشر.

وكل هذه المنجزات الحضارية التي أقامها سليمان – عليه السلام – لم تكن خاليةً من





العقيدة والعبادة، بل تم كل ذلك لبناء العقيدة وترسيخ العبادة.

الريح:

وسخر الله سبحانه وتعالى الريح لنبيه سليمان – عليه السلام – ليستخدمها في عمارة الأرض، وتيسير أمور الحياة للناس، وبناء حضارة كبيرة تحقق طموحه في أن يفعل شيئًا في الدنيا يرضى عنه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

وكانت المواصلات وقتها عبارةً عن الإبل والخيل والبغال والحمير، والمراكب والسفن الشراعية التي تسير في الماء بقوة الرياح، ولذلك استخدم سليمان– عليه السلام– الرياح في دفع هذه المراكب والسفن لتحقق سرعةً أكبر، والله تعالى يبين لنا– من استخدام سليمان للرياح مسخرةً بإذن الله– سبحانه وتعالى– أن السرعة في المواصلات وإنجاز الأعمال الدنيوية جزء من بناء الحضارة وإقامة الخلافة، وتقدم العمران، واستغلال الوقت استغلالًا جيدًا هو منهاج كل المرسلين والأنبياء والعاملين على إعمار الأرض وتحقيق الخلافة فيها لله تعالى، وسنرى أن الغفلة عن عنصر الوقت في الحياة غفلة عن الإيمان بالله تعالى، وشمولية هذا الإيمان لكل شيء في الحياة.

الموقف الخامس: نبي الله تعالى يوسف عليه السلام:

يقول الله تعالى في سورة يوسف (٤٣–٥٦): ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ
يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن
كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا
مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ
سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ
يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ
يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ
مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن
نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ
عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ





﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا
مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

خرج نبي الله يوسف – عليه السلام – من الجب ليجد نفسه يُبَاع في أسواق مصر بثمن بخس، ولا أحد يشتريه، ويبقى كذلك حتى جاء وزير كبير من وزراء مصر واشتراه وأوصى به زوجته خيرًا.

تمضي حياة يوسف– عليه السلام– هادئةً بعض الوقت لا ينغصها إلا فراق الأهل والوطن، ولكنه يرضى بما أُتيح له من الحياة، ويحاول عن طريق الإخلاص في العمل وبذل الجهد في بيت الوزير، وفيما يُكَلف به من عمل أن يحقق ذاته، ولكن سرعان ما تتعلق به زوجة العزيز وتحبه حبًّا جمًّا، وتراوده عن نفسه.

ولكنه يرفض بشدة ويهرب من المكان، وعلى باب القصر يجد العزيز أمامه، والمرأة خلفه وهي تبكي وتدعي بأن يوسف– عليه السلام– قد حاول الاعتداء عليها، ويلجأ العزيز إلى قريب له ولزوجته يُعْرَف بالحكمة، فيعاين ملابس يوسف– عليه السلام– الممزقة، ثم يستقر ضميره على براءته بسبب وجود تهتكات في قميصه من الخلف.

وهذا يدل على أنه كان يجري من المرأة، وهي تجذبه إليها، ومن هنا قضى هذا الرجل ببراءة يوسف– عليه السلام– وإدانة المرأة، وتُركه في قصر العزيز فترةً بعد ذلك، ولكن امرأة العزيز جمعت له النساء اللاتي يتهمنها بالضعف أمام جماله وأعطت كل واحدة منهن سكينًا وشيئًا من الفاكهة، وأمرت يوسف أن يمر من أمامهن فذُهِلن وقطعن أيديهن، وواسين امرأة العزيز وعذرنها فيما فعلت بسبب قوة جماله.

ولكن العزيز ومستشاريه قد أدركوا بعد هذه الحادثة أن وجوده في القصر سوف يسبب لهم كثيرًا من المشاكل، فأمر العزيز بوضعه في السجن مع المسجونين من المخالفين والمجرمين على سواء، ولكن حب العمل عنده ومساعدته لكل إنسان يعيش معه جعله يحصل على عطف وتقدير كل المسجونين، لأنه كان يعيش في حركة مستمرة بين السجناء ويواسي هذا، ويساعد هذا، ويخفف آلام السجن عن هذا.





وفي يوم عاد إليه سجين كان قد خرج من مدة وعمل خادمًا للملك، وأخبر – عليه السلام – أن الملك قد رأى رؤيا لم يستطع أحد أن يفسرها له، وقص على يوسف تفاصيل الرؤيا؛ وكانت تتلخص في أن الملك رأى في نومه أن سبعًا من البقرات السمينة القوية تتغلب عليها سبع بقرات نحاف ضعاف وتأكلها؛ أي أنه رأى الضعيف يتغلب على القوي ويأكله.

ثم رأى الملك بعد ذلك سبع سنابل قمح خضراء وسبع سنابل أخرى يابسات، وهاتان المجموعتان في مكان واحد تخرجان من مجموعة واحدة، وأخبر نبي الله يوسف خادم الملك أن العالم كله سوف يمر بسبع سنين من القحط والجدب، ولا أمل لكل سكان العالم في النجاة من هذه المجاعة، إلا إذا وضعت مصر خطةً لتخزين القمح وإنقاذ العالم المعمور من الهلاك، ولا تستطيع دولة في العالم أن تقوم بهذا العمل إلا مصر.

ولذلك أراد الله لمليكها أن يرى هذه الرؤيا، ثم شرع يوسف في تفصيل هذه الخطة فقال للخادم: لا بد من العمل، ووصل الليل بالنهار، وأن تعمل الأمة كلها في هذا المشروع الذي يستمر سبع سنين في زراعة القمح وتخزينه، ثم تأتي سبع سنين أخرى عجاف بدون مطر وبدون زراعة ويجوع العالم، ولكنه يجد النجاة في مصر.

ثم يأتي بعد ذلك عام تُقَام فيه الاحتفالات بهذا الفوز من الهلاك، وعاد الخادم إلى الملك وقص عليه ما سمع من يوسف – عليه السلام – وعند ذلك أدرك الملك أن هذه الخطة لا يمكن تنفيذها إلا بقيادته.

وأرسل الملك إلى يوسف لإحضاره من السجن، وعلم يوسف من الرسول أن الملك يعزم تعيينه قائدًا لهذه المهمة الكبيرة؛ فأرسل للملك يطلب منه سؤال النساء عن ما حدث منهن له.

وأقر النسوة ببراءة يوسف من كل سوء، واعترفت زوجة العزيز بذنبها وأنها هي التي طلبت من يوسف– عليه السلام– فعل الفاحشة، وأنه رفض ذلك ولم يستجب لطلبها وكان الإقرار على ملأ من الناس كما طلبه لأنه كان يريد من وراء ذلك نفي التهمة عن نفسه حتى يتفرغ لقيادة الناس لهذه المهمة الكبيرة، لأنه لو قادهم وهم يشكون في سلوكه فإن طاعتهم له لن تكون كاملةً، وما حدث من يوسف عليه السلام يُعْتَبر فنًّا قياديًّا رفيعًا.

وبدأ يوسف– عليه السلام– قيادة الأمة المصرية للخروج من مأزق المجاعة العالمية،





فوضع خطةً شاملةً لهذه العمل، وقسم هذه الخطة إلى عناصر، وبعض الناس يسمع هذه القصة في القرآن الكريم يظن أن الأمر كان سهلًا للغاية، وأنه أمر المصريين بالزراعة فزرعوا، ثم قاموا بتخزين ما زرعوا.

إلا أن الأمر ليس كذلك لأن الزراعة تتطلب شق الترع والمصارف وبناء الجسور، والعمل على تسوية الأرض وإيصال الماء إليها، ولزراعة أكبر مساحة من الأرض، وهذا يتطلب إنشاء جهاز إداري فعال يؤدي عمله بالليل والنهار، ثم تأتي بعد ذلك مشكلة التخزين في السنابل حتى لا يتلف القمح، والتخزين في السنابل يشغل حيزًا كبيرًا في المخازن.

ولذلك لزم عمل أعداد كبيرة من المخازن الضخمة التي تبعد عن الحرارة والرطوبة وهذا لا يأتي إلا في باطن الأرض وداخل الجبال، ومن هنا بدأ يوسف – عليه السلام – في جمع العمال من كل مصر، ولعمل هذه المخازن بعد وضع الأشكال الهندسية والعلمية لها، وتأمين العمال من انهيار الجبال عليهم أثناء الحفر بالليل والنهار وهذا التنظيم الذي وضعه م ينفع مصر والعالم في فترة المجاعة فقط، بل ظلت تنتفع بهذا النظام لآلاف السنين بعد ذلك.

وعن طريق هذا الإنجاز الضخم تم إنقاذ العالم كله من المجاعة، وكان سكان كل منطقة في العالم المعمور يأتون بالأموال اللازمة لشراء القمح من مصر ثم يعودون إلى بلادهم بالقمح وهو الأمل الوحيد في استمرار الحياة، ومن بين الوفود التي جاءت إلى مصر وفد يضم بينه أخوة يوسف – عليه السلام – الذين ألقوه في الجب قبل ذلك وتخلوا عنه بدافع من الغيرة والحقد عليه وعرفهم وطلب منهم إحضار أخيه الشقيق بنيامين في الرحلة التالية وأخذه منهم بحيلة معينة، ولكنه كشف لهم في نهاية الأمر عن نفسه وأحضر أباه وأمه وأهله جميعًا إلى مصر بلد الخير والنماء.

ونجَّى اللّه تعالى يوسف – عليه السلام – وأخرجه من محنته ببركة العمل الدنيوي العمراني الذي بذله للمصريين ولكل العالم بعد ذلك.

ويبقى على هذه القصة ملاحظات:

الأولى:

إنه أنقذ أهل مصر بعد أن ظلموه، وكان لا يستحقون منه معروفًا ولا خيرًا على الإطلاق، لأن الجميع تآمروا عليه وهو بريء، ولكنه لما علم أن هذا الأمر يتعلق بكل سكان الدنيا في





هذا الوقت، وأن الجوع من الممكن أن يؤدي إلى فناء العالم وضياع مشروع الله تعالى فيه، وضياع خلافة الإنسان لله تعالى في هذا العالم.

فقد خرج من السجن ليعمل مع مساعديه بالليل والنهار بعد أن عينه الملك حاكمًا عامًّا لكل مصر، فيما يشبه الحاكم العسكري الآن، ومساعدة يوسف – عليه السلام – للمصريين في محنتهم تدل على أن أصحاب النفوس الكبيرة لا يقفون عند الأشياء الصغيرة في الحياة، ولكنهم دائمًا ينظرون إلى الأهداف العليا والكبرى للإنسان.

الثانية:

إن يوسف – عليه السلام – بقي في السجن حتى جاءه خادم الملك، وكان يصنف سجينًا حتى ولو كان بريئًا، وقبل السجن كان يعمل خادمًا في بيت العزيز، ولكنه عن طريق العمل الدنيوي في زراعة وتخزين الحبوب أصبح حاكمًا عامًّا، يأمر فيُطَاع، في كل مكان من مصر، واستطاع من موقعه هذا أن يساعد أهله وأن يحضرهم إلى مصر في عزة وكرامة.

الثالثة:

إن يوسف – عليه السلام – حينما عُرِضت عليه المشكلة لم يتركها للظروف أو يسأل الله تعالى حلها من غير عمل من الناس كما يفعل بعض صلاح هذا الزمان، بل جعل حل المشكلة عن طريق الجهد البشري المُحَاط بتوفيق الله سبحانه وتعالى وأمر الناس بحل مشاكلهم بأيديهم وأفهمهم أن الله تعالى لا يساعد الكسالى، ولكنه – سبحانه وتعالى – يساعد العاملين المنتجين.

الرابعة:

إن يوسف – عليه السلام – لم ينس لحظةً واحدةً مهمته الأساسية في الدعوة إلى الله تعالى، بل إنه كان يبذل جهودًا متناهيةً ليؤسس لدعوته ويمكن لها، وهذا أسلوب قوي في الدعوة إلى الله تعالى، لأن الإنسان الذي يعيش على هامش الحياة لا يستطيع أن يقنع الآخرين بدعوته أو احترامه كإنسان، وكم من دعوات باطلة ازدهرت فترةً من الزمن بسبب قوة أصحابها وعملهم الجاد من أجلها.



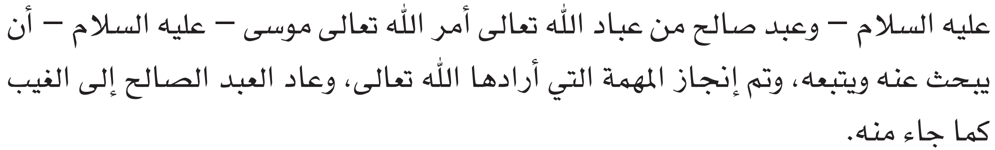


الموقف السادس: نبي الله تعالى موسى- عليه السلام- والعبد الصالح:

قال الله تعالى في سورة الكهف (٦٠–٨٢): ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ
ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا
عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ
جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ
وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ
جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا
فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا
﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ
زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ
أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

جاءت هذه القصة في سورة الكهف وهي قصة رحلة عملية قام بها نبي الله موسى –





عليه السلام – وعبد صالح من عباد الله تعالى أمر الله تعالى موسى – عليه السلام – أن يبحث عنه ويتبعه، وتم إنجاز المهمة التي أرادها الله تعالى، وعاد العبد الصالح إلى الغيب كما جاء منه.

والمفسرون يختلفون كثيرًا حول مضمون هذه القصة، وبعض الناس يزعم – واهمًا – أن الولي أفضل من النبي بدلالة هذه القصة، وهم بذلك يهزلون في موقف لا يقبل الهزل، إلا أن القصة من أولها لآخرها تؤكد معنى خلافة الإنسان لله تعالى في ثلاثة أشياء، وكان من الممكن اليسير أن ينفذها الله تعالى بقوة (كن) التي يطلقها على أي شيء فيكون، ولكنه استخلف فيها الإنسان للقيام بهذا العمل، فالله تعالى يريد ما يلي:

(أ) حماية السفينة من الغصب (السرقة) عن طريق قراصنة البحر، فكلف العبد الصالح بخرقها ليظهر فيها العيب الذي يمنعها من السرقة.

(ب) قتل الغلام حفاظًا على مستقبل أبويه الإيماني، لأن هذا الغلام سوف يجرهما بفسوقه إلى الطغيان والكفر، أو يعذبهما طغيانًا وكفرًا، وكان من اليسير خروج روح هذا الغلام من طريق غير هذا الطريق، ولكن العبد الصالح قام بقتله تنفيذًا لمراد الله – سبحانه وتعالى.

(ج) بناء الجدار للمحافظة على الكنز الموجود تحته، وقد قام بذلك العبد الصالح يعاونه نبي الله موسى – عليه السلام – وتأكد بذلك أن عمارة الأرض وتطورها مهمة إنسانية أساسية، وأن ذلك جزء من عقيدة المسلمين؛ والذين يذهبون في فهم النص القرآني بعيدًا عن هذه الواقعية، إنما يصرفونه عن معناه، ويجتالونه بعيدًا عن هدفه.

الموقف السابع: نبي الله تعالى موسى عليه السلام – في أرض مدين:

يقول الله تعالى في سورة القصص (٢٢–٣٠): ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا



جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ
ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ
هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ
سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ
فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ
مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ
ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ
مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

خرج نبي اللّه تعالى موسى– عليه السلام – من مصر خائفًا مهددًا بالقتل بعد أن قتل المصري– بدون قصد– وهو يدفعه بعيدًا عن اليهودي، وظل يسير في برد الليل وحر الشمس.

وصل إلى أرض مدين، ووجد مجموعةً من الرجال يلتفون حول بئر ماء، يسقون منه إبلهم وأغنامهم، ولكنه وجد بعيدًا عن البئر فتاتين تدفعان أغنامهما وإبلهما بعيدًا عن الماء، فتعجب لهذا الأمر، وسألهما عن سر ذلك التصرف العجيب، فقالتا له: إننا نمنع إبلنا وأغنامنا عن الماء حتى ينصرف الرعاة، لأننا لا نقوى على مزاحمة الرجال، وأبونا شيخ كبير وليس لنا عائل غيره.

فقام نبي اللّه تعالى موسى يدفع الإبل والغنم إلى البئر وسقى لهما، ورد لهما أغنامهما وإبلهما، ثم انصرف بعيدًا عنهما، وعند عودة البنتين إلى أبيهما أخبرتاه بما حدث لهما معه فأرسل له يطلبه ليجزيه على ما قدم لابنتيه من خدمة عظيمة.

ولما جاء موسى إلى هذا العبد الصالح، وأخبره بقصته طمأنه وقال له: لقد نجوت من هؤلاء القوم الظالمين، وأشارت إحدى ابنتيه على أبيها أن يستأجر موسى للقيام بزراعة الأرض ورعي الماشية بدلًا من البنتين.

ولكن الرجل الصالح أدرك أنه لو استأجر موسى– عليه السلام – من غير أن يزوجه إحدى ابنتيه فإنه سيوقعه في حرج، لأنه لن يكون حرًّا في تصرفاته اليومية وهو بين قوم لا





تربطه بهم رابطة، وهنا أخبر العبد الصالح موسى أنه سيزوجه ابنته.

وقال موسى إني لا أملك شيئًا من حطام الدنيا، فأخبره العبد الصالح أن صداق ابنته سوف يكون العمل اليدوي الدنيوي، وأن هذا الصداق يُقَدر بعمل موسى – عليه السلام – للعبد الصالح ثماني سنوات، وإن أتمها عشرًا فهذا يعود إلى اختيار موسى عليه السلام.

وهنا وافق موسى – عليه السلام – على الزواج والعمل مقابل ذلك ثماني سنوات. في هذه القصة دعوة عظيمة للعمل الدنيوي، وأنه عزة وفخار للإنسان الفرد على السواء، فهذا هو نبي الله تعالى موسى – عليه السلام – يعمل أجيرًا ثماني سنوات أو أكثر؛ يزرع الأرض ويرعى الغنم، ولا يرى في ذلك شيئًا يحرج كيانه.

وهذه القصة تثير في النفس عدة ملاحظات:

الأولى:

أن نبي الله موسى تم إنقاذه عن طريق العمل الدنيوي والجهد المبذول فيه.

الثانية:

أنه عمل أجيرًا ثماني سنوات وليس يومًا أو يومين، وكان يؤدي عمله بصبر ومهارة عند صهره، وكان من الممكن بعد الزواج أن يهيمن على البيت، وأن يستأجر أحدًا مكانه للعمل، ولكن أنبياء الله تعالى يرون في العمل اليدوي الدنيوي طاعةً لله تعالى وخلافةً له.

ولذلك لم يرد أن نبيًّا ترفع على العمل ورفضه مهما كان نوعه أو الثمرة التي تعود منه، وطالما أنه مرضاة الله سبحانه وتعالى.

الثالثة:

أن كثيرًا من شباب المسلمين يرغبون في الزواج، ولكنهم لا يعملون بجهد لإعداد بيت كريم، وينتظرون – في الغالب – أن تُحَل مشاكلهم بطرق خيالية لا وجود لها إلا في خيالهم الكليل، ومن الممكن أن يكون نبي الله تعالى موسى – عليه السلام – قدوةً لهم في العمل من أجل بناء مستقبلهم، ومستقبل أجيالهم القادمة.

الرابعة:

أن العبد الصالح – صهر موسى عليه السلام – لم يعفه من العمل بحجة أنه رجل صالح، وأنه رجل تقي؛ لأن الصلاح والتقوى لا يعفيان العبد من عمارة وإقامة الخلافة، ولذلك طلب





منه أن يعمل ثماني سنوات في مقابل صداق ابنته، بل طلب منه أن يزيد على هذا الأجل عامين آخرين، فهو هنا لا يعفيه من العمل بل يطلب منه المزيد.

الموقف الثامن: ذو القرنين وبناء السد:

قال الله تعالى في سورة الكهف (٩٣-٩٨): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾﴾.

مكن الله تعالى لعبده ذي القرنين وعلمه كيف يسيطر على الأرض، وأعطاه أسباب ذلك، وطاف ذو القرنين في أرجاء العالم من مشرقه لمغربه حتى وصل بين السدين – مكانًا بعيدًا جدًّا – وجد هناك أناسًا متخلفين، ليس لهم نصيب من الحضارة الإنسانية واستغاث الناس به لإنقاذهم من ظلم يأجوج ومأجوج وفسادهم، وعرضوا عليه مبلغًا من المال يُدْفَع كل عام على أن يقوم ذو القرنين وقواته الضخمة ببناء سد بين هؤلاء القوم وبين يأجوج ومأجوج.

وعد ذو القرنين القوم بأنه سيبذل أقصى جهد في عمل سد يؤمنهم من هجوم يأجوج ومأجوج، ولكنه طلب منهم أن يساعدوه وأن يبذلوا معه أقصى جهد ممكن وقال لهم ساعدوني بقوة، لأن بناء السد الكبير ليس أمرًا سهلاً على الإطلاق، وأنه لن يتم إلا بالجهد والعرق والتضحية بكل غال ونفيس، وهو بهذا يحاول أن يخرجهم من عزلتهم، ويكشف لهم عن القوة الكامنة بداخلهم، وهم لا يشعرون بها، وهي قوة الحركة والعمل المنظم الهادف – قوة الخلافة.

وبعض الباحثين يظنون أن أهم شيء فعله ذو القرنين لهؤلاء الناس أنه بنى لهم سدًّا كبيرًا، إلا أن الباحث المدقق يدرك أن أهم شيء فعله ذو القرنين لهؤلاء الناس أنه دفعهم للعمل في بناء السد، وحرر إرادتهم المكبلة بالذلة والخنوع والخوف من همجية يأجوج ومأجوج، ولعل إيقاظ إرادة هؤلاء الناس ودفعهم للعمل كان أقوى وأكثر خطرًا من بناء السد وتحصينه.





وظل يأجوج ومأجوج عاجزين عن تخطي هذا السد المنيع لسببين:

أحدهما: قوة السد ودقة صنعه.

وثانيهما: أن يأجوج ومأجوج اعتقدوا أن القوم الذين استطاعوا أن يبنوا هذا السد الشامخ بالعمل لن تكون السيطرة عليهم سهلةً كما كانت من قبل، فقد استيقظت فيهم الإرادة وحب العمل، وأي أمة تستيقظ في أبنائها الإرادة وحب العمل لا بد أن تصبح أمةً مهابةً يفكر العدو مرات كثيرة قبل أن يهجم عليها أو يفرض عليها إرادته، ومن الغريب أن الأمة الإسلامية تعيش الآن حالةً تشبه حالة القوم قبل بناء السد، ولكن أين ذو القرنين يوقظها ويدفعها للعمل وتطوير الحياة.

***





الباب الثاني:

مصادر فكرية للعمل العمراني في الإسلام

العمل:

كل مجهود واع يبذله الإنسان، بدنيًّا أو عقليًّا لاستغلال هذه الموارد لمنفعته؛ سواء أكان العامل يعمل لنفسه أو لغيره بأجر، أيًّا كان هذا الغير – فردًا أو مؤسسةً أو حكومةً – وسواء أكان يعمل منفردًا أم يعمل شريكًا لغيره، شريكًا بجهده وخبرته، وسواء أكان عمله في مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو غيرهما من الحرف؛ عالية أو دانية، يسيرة أم شاقة، تدر الوفير من الدخل أم لم تدر إلا القليل أو الأقل من القليل.





الفصل الأول:

العرب قبل الإسلام

في تلك البقعة التي اصطلح الناس على تسميتها جزيرة العرب عاشت أمة جاهلية، فكانت في جملتها أذل الناس ذلًّا وأشقاهم عيشًا وأبينهم ضلالةً وأعراهم جلودًا، وأجوعهم بطونًا معكوفين على رأس جحر بين الأسدين:

فارس والروم، تجتهلهم الحمية، فيثورون لأقل الأسباب دعوةً إلى ثورة يحتدبون حتى ما تضع الحرب أوزارها إلا ليستأنفوا أخرى أذكى نارًا وأقوى استعارًا، وتستنفرهم حاجة العيش فينفرون إلى التماس الرزق من أخس وجوهه؛ لا يبالون بما أتوا ما داموا يشبعون غرائز غرسها فيهم شظف العيش، ونشأهم عليها جدب الصحراء، وتتيقظ فيهم غريزة الخضوع التي فُطِر عليها الناس تقسرهم على البحث عن إله له من القدرة ما ليس لهم؛ فيقومون إلى الأحجار ينحتونها أصنامًا يسبحون بحمدها لا يصدهم عن ذلك ما بها – من قماءة وذلة –يكاد يُهْتَف بهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾.

والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحْسَدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًّا ومن مات تردى في النار.

والله ما نعلم أمةً في حاضر الأرض كانت أصغر حظًّا وأدق شأنًا منهم حتى جاء القرآن فنقلهم من الذلة إلى العزة ومن الشقاء إلى السعادة، بل من الموت إلى الحياة، ورفعهم من أمة محقورة لا تكاد تحتفل بها أمة ولا يأبه لها شعب إلى سادة في الأرض وملوك على رقاب الناس.

سكن العرب شبه جزيرتهم الجافة القاحلة التي لا تصلح للزرع ولا للاستقرار ولا تلائم الحضارة، ومن ثم كان أهلها بدوًا رحلًا يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلأ والعشب ويعيشون تحت الخيام ويولعون بصهوات الخيل، ويطعمون من لحم الإبل والأنعام ويشربون من ألبانها ويكتسون من أصوافها ...





وهذه الحياة اتسمت بالسذاجة والبساطة، وعُرِفت بأنها حياة البداوة، أما قريش فكانت متحضرةً لمكانتها الدينية ومنزلتها الاجتماعية، وغناها من الإيلاف وترحلها للتجارة، وقدوم العرب إليها للحج والأسواق وكذلك القحطانيون متحضرون لحظ ديارهم من الخصب ووفرة الغلات والثمار.

ولقد اعتمدوا الغارة والحرب والقتال أسلوبًا لحياتهم لمكان العصبية منه؛ فكانوا لا يصبرون على ضيم ولا يقيمون على هوان، وقد جر عليهم ذلك فساد القلوب ودوام الحروب وتعدد الغارات ونزوة العصبيات، وما حروب داحس والغبراء، وحرب البسوس، ويوم حليمة إلا صفحات مخضبة بالدماء، وقد احتفلوا بالذكر وكرهوا الإناث ومارسوا الوأد إما خوف العار أو الفقر، ولم تكن كل القبائل تفعله، ولم تكن لهم مدنية اجتماعية – بل نزاعات فردية أو قبلية، وكان مجتمعهم مجتمع القبلية في بعض النواحي حضارات عربية كحضارة المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام والسبئيين باليمن[١].

التعويض النفسي:

رُوِي أن الشاعر الجاهلي الفاتك الذي يُدْعَى «تأبط شرًّا» والذي كان اسمه يثير الفزع والرعب في قلوب الناس – هذا الشاعر قد جاءه من يُدْعَى أبا وهب، وكان أبو وهب هذا معجبًا بتأبط شرًّا؛ يريد أن يكون مثل شهرته، ولكن أنى له ذلك وهو ضعيف لا حيلة له؟

وفي عالم الأحلام متسع لمن يضيق بهم الواقع في هذه الحياة، وشاءت أحلام الرجل أن يستعير اسم تأبط شرًّا، فيسمي به نفسه، ويأخذ تأبط اسم أبي وهب هذا في مقابل بضعة من الإبل حتى يقع في وهم الرجل أن الأمر جد وأنه عقد صفقةً رابحةً.

وجاء الرجل إلى تأبط شرًّا يعرض عليه هذا العرض العجيب فضحك تأبط شرًّا في سره، وأجاب الرجل إلى ما طلب، وقال له: أنت منذ الآن تأبط شرًّا وأنا أبو وهب، وهات الإبل ثمنًا لهذه الصفقة.

ومضى الرجل فرحًا مزهوًّا وبدا له أنه وُلِد ميلادًا جديدًا في الحياة وأنه تأبط شرًّا بلحمه ودمه.

وأخذ تأبط شرًّا ينظر إلى صاحبه وهو يختال عجبًا ويلوح بسيفه في الهواء متوعدًا

١– انظر: قيم حضارية ١/ ٢٤٦١، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٤.





الناس بسطوات وغارات تنخلع لها القلوب، ويتحدث بأحداثها الركبان، ويتحرك شيطان الشعر في صدر الشاعر الفاتك فيقول مصورًا هذه الواقعة ناعيًا على صاحبه أبي وهب صفقته الخاسرة:

ألا هل أتى الحسناء أن حليلهـــا ... تأبط شرًّا واكتنيت أبا وهـــــب

هبيه تسمى اسمي وسُمِّيت باسمه ... فأين له صبري على فادح الخطب

وأين له عزم كعزمي وهمتـــــي ... وأين له في كل فاجعة قلبـــــي[1]

شعر البادية: أغراضه وفنونه:

نظم العرب الشعر في كل ما أدركته حواسهم وخطر على قلوبهم من فنونه وأغراضه الكثيرة كالنسيب ويُسَمى (التشبيب والتغزل) وطريقته عند الجاهلية تكون بذكر النساء ومحاسنهن وشرح أحوالهن، وكان له عندهم المقام الأول من بين أغراض الشعر، حتى لو انضم إليه غرض آخر قُدِّم النسيب عليه، وافْتُتِح به القصيد لما فيه من كل اجتماع إنساني. والبدو أكثر الناس حبًّا لفراغهم[2].

عودة العرب إلى بعض العادات السابقة على الإسلام:

أصبح الرجل في هذا العقد مدفوعًا إلى العمل، مدفوعًا إلى العمل إلى المكرمات والبطولات وإلى الجود والمواساة بدافع من السمعة والرياء، والظهور في القبائل والمجامع والتفوق على الأقران، بعد ما كان مدفوعًا إلى ذلك بدافع من الأجر وثواب الآخرة ورضا من اللّه.

وقصة يرويها أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني تمثل هذا التطور الخطير وهذه الروح الجاهلية التي كانت تخامر رؤساء القبائل وأشراف العرب في ذلك العهد خير تمثيل قال:

(حدث ابن عايش قال: كان حوشب بن يزيد بن الحارث ابن رؤيم الشيباني وعكرمة بن ربعي يتنازعان الشرف، ويتباريان في إطعام ونحر الجزر، في عسكر مصعب، وكان حوشب يغلب عكرمة لسعة يده وقال:

١- انظر: اليهودية في القرآن، أ/ عبد الكريم الخطيب، ص ٤٩-٥٠، دار الشروق، الثانية، ١٩٨١/ ١٤٠١هـ.

٢- انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، السيد أحمد الهاشمي، ٢/ ٢٥، ط مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة السادسة والعشرون، ١٩٨٥م/ ١٩٦٥.





قدم عبد العزيز بن يسار مولى محيريز الفقيه بسفائن دقيق، فأتاه عكرمة فقال له: الله الله في، قد كاد حوشب أن يستعليني ويغلبني، فبعني هذا الدقيق بتأخير ولك مثل ثمنه ربحًا، فقال:

خذه، وأعطاه إياه، فدفعه إلى قومه وفرقه بينهم وأمرهم بعجنه كله فعجنوه كله ثم جاء بالعجين كله فجمعه بهوة عظيمة وأمر به فغُطِّي بالحشيش وجاء برمكة (الفرس تُتَّخذ للنسل) فقربوها إلى فرس حوشب حتى طلبها وأفلت ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعها حتى ألقوها في ذلك العجين وتبعها الفرس حتى تورطا في العجين وبقيا فيه جميعًا، وخرج قوم عكرمة يصيحون في المعسكر يا معشر المسلمين فرس حوشب قد غرق في خمير عكرمة، فخرج الناس تعجبًا من ذلك أن تكون خميرة يغرق فيها فرس فلم يبق في المعسكر أحد إلا ركب ينظر، وجاؤوا إلى الفرس وهو غريق في العجين ما يبين منه إلا رأسه وعنقه، فما أُخْرِج إلا بالعمد والحبال وغلب عليه عكرمة وافْتُضِح حوشب)[1] .

تعليق: هذه القصة وإن كانت فرديةً إلا أنها تصور الغاية التي وصل إليها تأثير الجاهلية ونفوذها والتفكير الجاهلي في المجتمع الأموي الإسلامي.

تصور ميسونة بنت مجدل الكلابية حياة البداوة في لهجة مؤثرة صادقة فتقول:

لبيت تخفق الأرواح فيـــــه   **أحب إلي من قصر منيـــــف**
أحب وكلب ينبح الطراق عني   **إلي من قــــط ألـــــوف**
ولبس عباءة وتقر عينـــــي   **أحب إلي من لبس الشفــوف**
وخرق من بني عمي نحيــف   **أحب إلي من علج عنيـــــف**
وأصوات الرياح بكل فـــج   **أحب إلي من نقر الدفـــوف**
وأكل كسيرة في قصر بيتــي   **أحب إلى من أكل الرغيـــــف**
فما أبغي سوى وطني بديــلًا   **وحسبي ذاك من وطن شريف**[2]

فحياة البداوة بمظاهرها البسيطة أحب إليها من حياة الحضارة ذات الترف والنعيم.

١- الشيخ أبو الحسن الندوي في رجال الفكر والدعوة ١/ ٢٧، ٢٨، ط دار القلم عند حديثه عن النزعات الجاهلية في العهد الأموي.

٢- انظر: قيم حضارية للشيخ توفيق سبع، ص ٢٢، ط دار المنار.





يقول الشيخ الغزالي: كنت أسير في الشارع فوجدت العمال يحفرونه على مدى بعيد كبير ووجدت أنابيب هائلة تُمَد بلباقة وقدرة لتكون شبكة الصرف الصحي في هذا الحي الكبير... وعرفت أن معونةً إنجليزيةً مشكورةً قامت بالصناعة والتركيب، ومددت يدي إلى إحدى الصحف كي أغالب السآمة التي تتسلل إلى أعصابي فوجدت في الصفحة الأولى خبرين: يقول أولهما: ١٥٠ مليون دولار منحة من إيطاليا لمصر، ويقول الآخر: مساعدات غذائية أوروبية لمصر قيمتها ١٠ ملايين دولار لمناسبة عودة ٤٠٠ ألف عامل فروا من العراق والكويت في الأحداث الأخيرة.

ومسلسل الأخذ لا ينتهي، وستبقى الأكف مفتوحةً لتلقي القروض والهبات حتى نستفيق من الغيبوبة التي دانت علينا.

ثم يقول: إننا لم ننحرف عن رسالتنا الإسلامية فقط، بل نسينا انتماءنا إلى آدم الذي علمه الله الأسماء كلها، وأهبطه إلى الأرض كي يعمرها بذكائه ونشاطه أو بكد يمينه وعرق جبينه[1].

وعن تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ يقول الشيخ محمد الغزالي يوصيه مرةً أخرى بالدأب على الجهاد والإقبال على الله فإذا انتهى من واجب نهض إلى غيره، لا مكان في حياته لفتور[2].

الإنسان المذموم في القرآن:

إنسان سلبي عاجز لا يتكلم بحق، ولا يقدر على شيء ولا يعطي، يستهلك ولا ينتج كل على مولاه، وعالة على غيره يُحمل ولا يحمل مُعَطل الطاقات، أينما ذهب لا يحقق خيرًا ولا يفيد أحدًا فهذا مثل السوء.

وفي مقابلة الإنسان المحمود:

الإنسان الإيجابي الفاعل الصالح في نفسه المصلح لغيره فهو ينطق بالحق، ويأمر بالعدل، وهو في الوقت نفسه على صراط مستقيم منهج بين موصل إلى الهدف لا ينحرف يمنةً ولا

١- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، الغزالي ص٢٩، دار الشروق، الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٢- التفسير الموضوعي ٣/ ٢٢٣، ط دار الشروق، الأولى، ١٩٩٥.





يسرةً، فهو حين يأمر بالعدل يطبق العدل على نفسه، وبهذا يكون حقًّا على صراط مستقيم[١].

نوح عليه السلام:

ذُكر نوح عليه السلاح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعًا موزعةً على ثمان وعشرين سورةً، إحدى وعشرون منها مكية وسبع مدنية.

وقد فصلت قصته في سورة (القمر والأعراف والشعراء وهود ونوح والمؤمنون)[٢].

إسرائيليات في سفينة نوح:

من الإسرائيليات التي اشتملت عليها بعض كتب التفسير كتفسير ابن جرير الطبري والدر المنثور وغيرهما.

ما رُوي في سفينة نوح عليه السلام:

فقد أَحاطوها بهالة من العجائب والغرائب من أي خشب صُنِعت؟ وما طولها؟ وما عرضها؟ وما ارتفاعها؟ وكيف كانت طبقاتها؟ وذكروا خرافات في خلقة بعض الحيوانات من الأخرى، وقد بلغ ببعض الرواة أنهم نسبوا بعض هذا إلى النبي (ﷺ).

أخرج ابن جرير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: الحواريون لعيسى بن مريم – عليهما السلام – لو بعثت لنا رجلًا شهد السفينة، فحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كُثَيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التراب، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب حام بن نوح، فضرب الكثيب بعصاه قال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب، قال له عيسى – عليه السلام – : هكذا هلكت؟ قال: لا؛ مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة قد قامت فمن شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع، كانت ثلاث طبقات؛ فطبقة فيها للدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما

١- انظر: الإسلام حضارة الغد، القرضاوي، ص١٨٤، ط وهبة، الأولى، سنة ١٤١٦.

٢- انظر: منهجه في الدعوة: في الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ومناهجهم، د. محمد طلعت أبو صبر، ص٣٦، وما بعدها، ط المطبعة العربية الحديثة، ١٤٠٦هـ.

وفقه الدعوة من حياة موسى، د. محمود محمد عمارة، ط التوفيقية، بدون.





وقع الفأر يخرب السفينة بقرضه أوحى الله أن اضرب بين عيني الأسد؛ فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر فأكلاه.

وفي رواية أخرى: أن الأسد عطس، فخرج من منخره سنوران ذكر وأنثى فأكلا الفأر، وأن الفيل عطس فخرج من منخره خنزيران ذكر وأنثى؛ فأكلا أذى السفينة[1] ... إلخ الخرافات والأباطيل التي يرددها العوام والعجائز.

مريم عليها السلام:

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوي تعليقًا على هذه الآية: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ سورة مريم: ٢٥.

أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أن مباشرة الأسباب في طلب الرزق أمر واجب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالًا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاؤه ويريده.

وهنا قد أمر الله تعالى – مريم – على لسان مولودها بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب مع قدرته – سبحانه – على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك، ورحم الله القائل:

أ– ألم أن الله قـــال لمريــــم	**وهزي إليك الجذع يساقط الرطب**
ب– ولو شاء أن تجنيه من غير هزة	**جنته ولكن كل شيء له سبــــب**[2]

داود عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ الآية ٨ من سورة الأنبياء.

وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء.

فالسبب سنة الله في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة، وقد أخبر

١– انظر: تفسير ابن جرير الطبري: ١٢/ ٢١/ ٢٩، والدر المنثور: ٣/ ٢٢٧–٣٣٥.

وانظر: الإسرائيليات والموضوعات، د. محمد محمد أبو شهبة، ص٢١٧، ط مكتبة السنة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ.

٢– د. محمد سيد طنطاوي في القصة في القرآن الكريم، ص٧٤٣، ط دار المعارف.





الله – تعالى – عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضًا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثًا، وكان نوح نجارًا، ولقمان خياطًا، وطالوت دباغًا.

فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس.

وفي الحديث:

«إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف، ويبغض السائل الملحف»[1].

سليمان عليه السلام:

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ....﴾ سورة الأنبياء: ٧٩.

أي ففهمناها سليمان الحكم الأنسب والأوفق في هذه المسألة أو القضية وذلك لأن داود – كما يقول العلماء – قد اتجه في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث وهذا عدل فحسب.

أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير وجعل العدل دافعًا إلى البناء والتعمير وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء من عباده[2].

عن حضارة داود عليه السلام يقول الشيخ/ توفيق سبع:

(عاشت هذه الحضارة في فلسطين وما حولها – فقد ثبت أن نبي الله داود استولى على بيت المقدس سنة ألف قبل الميلاد واتخذه عاصمةً ... وأراد أن يبني هيكلًا للعبادة، فمنعه الرب لأنه غمس يده في الدماء، ثم جاء سليمان بعد والده داود فأتم دورة هذه الحضارة التي اكتملت حقًّا على يديه).

وتشابكت حضارة داود مع حضارة ابنه سليمان – عليهما السلام وكلاهما نبي من أنبياء بني إسرائيل لأنها قامتا على أساس رباني، وتدخل فيهما عنصر الإعجاز السماوي مما جعل لهما طابعًا فريدًا بين الحضارات.

وعن ملامحها يقول:

(١) إنها تقوم على الجهاد في سبيل الله، فداود – عليه السلام – منذ الصبا كان

١- القرطبي في تفسيره، ١١/ ٢٢١.

٢- القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، ص٦٢٢، دار المعارف، ط الأولى، ١٩٩٥م/ ١٤١٦هـ.





شجاعًا محاربًا هو وإخوته وأبوه وإنه قتل جالوت الطاغية ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ .

(٢) إنها إعجاز إلهي قد توفر لها ما لم يتوفر لغيرها من الخوارق.

(٣) إنها حضارة تستثمر ألوانًا من المعارف وفنونًا من الخوارق.

(٤) إنها حضارة صناعية تتخذ من العمل وسيلةً لبناء الحياة وقد انصهر داود وشعبه في جو العمل بحيث صار العمل في تلك الحضارة قيمة عليا، وكان داود قدوة شعبه، وكان يأكل من عمل يده.

(٥) إن هذه الحضارة كانت قوية البنيان ثابتةً الأركان بدليل قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قويناه.

(٦) إنها حضارة ذات قيادة حكيمة تفصل في الأمور بنور الله وتقضي بين الناس بالحق.

(٧) إنها حضارة ذات دستور منزل من السماء تمضي على سنن منهج رباني، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ .[1]

هناك روايات كثيرة مرفوعة وموقوفة؛ نقلها السادة المفسرون في كتبهم بشأن خطيئة داود عليه السلام، وبعض هذه الروايات ينسب ارتكاب الكبيرة إلى نبي الله داود عليه السلام مع منافاتهما لعصمة أنبياء الله تعالى.

يقول الشيخ توفيق محمد سبع تعليقًا على حضارة سيدنا سليمان عليه السلام: «امتدت مملكة سليمان من خليج أيلة وفلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا إلى شطر الفرات».

ويقول عن ملامح هذه الحضارة السليمانية في ضوء آيات القرآن الكريم:

(١) إن هذه الحضارة قد تم إنجازها بقوى مذهلة متنوعة من جن وإنس وطير وكل واحد من هذه العناصر له مكانة في بناء الهيكل الحضاري.

(٢) إن الله جلت قدرته قد طوع لها من الكائنات وسخر لها من عناصر الكون وذلل لها من النواميس ما جعل كل شيء ميسرًا سهلًا في يد سليمان.

(٣) إن هذه الحضارة رغم ما تهيأ لها من وسائل الإعجاز لم يقعد أصحابها عن العمل وإنما استثمروا الكائنات واستفادوا من الفرص المتاحة وتحركوا بالعمل في كل

١- انظر: قيم حضارية في اقلرآن الكريم، الشيخ توفيق سبع، ١/ ١٦٨ وما بعدها بتصرف واختصار.





اتجاه، فهم لم يقعدوا لصنع الجن لهم ولم يكسلوا لتنوب الريح عنهم، وإنما انطلقوا بهذه التيسيرات يسخرونها بأمر الله ويستمدونها بقدرته.

(٤) إن التجرد لله والعمل بشريعته وإخلاص القلب له هي الوسائل التي تمكن الإنسان في الأرض والله – سبحانه – لا يمنح تأييده للفاجرين ولا للفاسدين.

(٥) إن سليمان ومن قبله داود ليس لهما تأثير مباشر في الكون وإنما التأثير والفاعلية لله، ولذا يحرص التعبير القرآني على أن يسند التأثير كله لله وهذه اللمحة لها أثر كبير في إلزام الإنسان حد نفسه حتى لا يتجاوز حجمه، إذ إنه ليس لأحد بالغ ما بلغ أن يزعم لنفسه شيئًا من الأمر.

(٦) تزدان تلك الحضارة بأنماط فخمة من وسائل الجمال والزينة التي لا تستطيع حضارة البشر بالغةً ما بلغت أن ترتقي إليها فهي حضارة ذوق وفن وجمال فيها النحت متمثلًا في التماثيل والهياكل وفيها البناء متمثلًا في المحاريب والمعابد وفيها دقة الصنع متمثلةً في الجفان والقدور الراسيات، وفيها الزينة متمثلةً في الخيول الصافنات، وفيها الزخرفة متمثلةً في الترصيع بالدر والياقوت، وما شئت من الحلي واللآلي والصدف وناهيك بالصرح الممرد من القوارير[1].

من مظاهر التصور الديني:

إنه استُقْدِم بعض العلماء ليقرأ البخاري (صحيح البخاري) في سفن الأسطول التركي حتى تصل البركة، وكان تعليق بعض الظرفاء أن الأسطول يسير بالبخار لا بالبخاري.

ومن الأحداث الجديرة بالنظر أن:

أحمد عرابي باشا أقام مع رجاله قبيل موقعة (التل الكبير) حفل ذكر (رقص ديني بالتعبير الصريح) كي ينصره الله على الإنجليز، وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث ساعة. كان التصور الديني أن تلاوة الأوراد من الكتاب والسنة أو تأليف المشايخ تصنع العجائب، وقد صنعت فعلًا صدعًا هائلًا في تاريخ كبير[2].

«إننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين، داود وسليمان عليهما السلام، وقد

١- قيم حضارية في القرآن الكريم، الشيخ توفيق سبع، ١/ ١٨٥، ط دار المنار وما بعدها بدون تاريخ.

٢- الدعوة الإسلامية، الغزالي، ص٥٧، ط وهبة، الثانية، ١٤٠٥هـ.





سُخِّرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغريبة التي لا يحدها جدار زماني أو حاجز مكاني، سخرت جميعًا لكي تعمل تحت إمرة الإنسان المؤمن المسؤول، الجياد، والطير، الحديد، الريح، القطر (النفط) في عدد، فسار من مساحات العمل (التقني) التطبيقي: صناعةً وعمرانًا وبناءً وفنونًا.

وتثير عجبنا في ميادين هذا النشاط تلك الإشارات الواضحة إلى الحديد والوقود اللذين قد تبين في قرننا العشرين هذا كم هما ضروريان أساسيان للحضارة المعاصرة ولكل حضارة، تريد أن تعمر وتصنع وتبني وتتفنن وتطبق، ويثير عجبنا كذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يمنح الحديد فحسب لداود، ولكنه يعلمه كيف يلينه، فبدون هذا لن تكون ثمة فائدة (صناعية) لهذا الخام الخطير.

إننا هنا نلتقي بالإنسان المؤمن بل النبي الذي يبلغ من فهمه عن الله وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من القوى المذكورة، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة من أجل أن يبني ويعمر ويتقن ويبدع ويبتكر، ويتقدم بالحياة صدعًا على طريق الخلافة المسؤولة المؤمنة الراشدة التي لا ينحرف بها هذا النعيم الكبير عن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بين الله والإنسان[1].

منهج سيدنا يوسف في مواجهة المشكلة:

نلاحظ من خلال الآيات قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .... ﴾ يوسف: (٤٢-٥٦) أنه كانت مرحلتان:

١- مرحلة خصب وإنتاج:

وقد دفع يوسف فيها إلى العمل بشدة ومواصلة الزرع مع ترشيد الاستهلاك وعدم الإسراف في المشاكل والعمل على بقاء مخزون احتياطي من الحبوب حتى يستطيع أن يواجه به السنين القادمة وأن يتم حفظ هذا المخزون بطريقة علمية وهي بقاؤه في سنبله حتى لا يأكله السوس أو العفن.

وهذا التصرف هو عين التخطيط السليم لهذه المرحلة (كمرحلة الإنتاج بلغة علم الاقتصاد الآن).

١- العقل المسلم والرؤية الحضارية، د. عماد الدين خليل، ص٤٨، دار الحرمين، بدون تاريخ.





٢- أما المرحلة الثانية:

فهي مرحلة التوزيع وخصوصًا أيام القحط والمجاعة وقد وصل فيها يوسف إلى قمة العدل ومنتهى الحكمة حيث كان يتم توزيع الحبوب على عدد الأنفس وليس على حسب القدرة الشرائية، والتي تؤدي إلى الاحتكار واستغلال حاجات الناس وخصوصًا في مثل هذه الظروف العصيبة. هـ.[1]

تعليقًا على طلب يوسف أن يكون وزيرًا على خزائن الأرض:

يقول الشيخ الغزالي: نلحظ أن يوسف عرض الخصائص النفسية والعلمية التي ترشحه للمنصب، فهو ليس عبدًا عفيفًا فقط بل صاحب خبرة في شؤون المال يعرف كيف وكيف يوزعه.

وقد أباح لنفسه طلب المنصب لأنه ليس هناك من هو أحق به منه، ومن المصلحة العامة أن تُوضَع الأمور في يد القوي الأمين بدل أن تُوضَع في يد عاجز قليل الخبرة.[2]

ويعلق الشيخ البهي الخولي - رحمه الله - على طلب سيدنا يوسف من ملك مصر أن يجعله على خزائن الأرض بقوله: هل تُرَاه يطلب الإشراف على شؤون التموين بالأسلوب الدنس الذي يلجأ إليه كل مستضعف مستعد لشهوة الظهور والغرور؟ إنك لا ترى إلا العزة الكاملة في الطلب.

عزة من يطلب لغيره لا لنفسه، بل عزة من يتقدم لأداء الواجب والإنقاذ من خطر يوشك أن ينزل.

وإن روح العزة ليطالعك في صيغة الأمر من قوله - عليه السلام - : ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾، بينما يتأدب سليمان مع الله في الطلب: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾. ولعل لنا في قصة يوسف - عليه السلام - درسًا يعلمنا الدستور الذي تُطْلَب به الوظائف والمناصب؛ فهي تُطْلَب بالعزة لا بالذلة، وتُطْلَب لأداء واجب وسداد ثغرة لا حشرًا بدون موجب وإسرافًا في المال العام، وتُطْلَب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء والوسيطات ألا تراه عليه يقول إثباتًا لكفاءته في غير

١- د. حلمي عبد المنعم صابر، الحل الإسلامي لمشكلة الغذاء، ص ٣٦٥، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٢- الشيخ محمد الغزالي في التفسير الموضوعي، ٢/ ٣٤.





زهو – طبعًا – ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ .

ولقد أخذ يوسف حظه من الملك؛ فدفع الله به شدةً عن الناس وكشف غمًّا وكروبًا كثيرةً؛ فكانت مصر في أشد أيام قحطها وجدبها بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة، أما هو فلم يفتنه المنصب عن ربه، ولم يعلق الترف بذرة من قلبه وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان، فيناجي ربه بمعنى مناجاة سليمان: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.[1]

إن الله أباح للبشر كافةً ارتفاق الأرض والمشي في مناكبها واستخراج كنوزها يستوي في ذلك المؤمنون والكافرون فما الحال إذا نشط الكافرون وكسل المؤمنون؟ ما الحال إذا كانت أيدي غيرنا لبقةً في الفلاحة والصناعة والتجارة والإدارة، وكنا نحن مكتوفي الأيدي في تلك الميادين كلها؟

أينتصر الإيمان بهذا التبلد العقلي والتماوت المادي والأدبي؟ أم يدركه الخذلان في كل موقعة؟ إن الواقع الأليم يتكلم فلنسكت نحن. كم يغيظني أن يُكَلف الأنبياء بصناعات الحديد وأن يُطَالبوا بتجويد آلات الحرب وإتقانها، وأن يتعلم الصالحون الرمي وإصابة الهدف وأن يكونوا خبراء ببناء الحصون وتشييد الاستحكامات العسكرية ... إلخ، بينما صالحونا لا يدرون عن ذلك شيئًا.

إن إصابة الأهداف من الأرض إلى الأرض أو من الأرض إلى الجو أو من البحر إلى البحر ... إلخ؛ تتطلب علومًا كثيرةً من طبقات الأرض إلى طبقات الجو ومن الهندسة إلى الطبيعة والكيمياء والفلك. أكان داود يعبث عندما قِيل له: ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾. سبأ: ١١

أكان ذو القرنين يعبث عندما أوقد الأفران وصهر المعادن وأقام خطًّا من الحصون المنيعة؟

١- تذكرة الدعاة، الشيخ البهي الخولي، ص٢٤٤/ ٢٤٥، ط دار الاتحاد الإسلامي العالمي، الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.





أكان محمد الفاتح يعبث عندما سير السفن على اليابسة وأكمل الحصار على خصومه؟

إن الذين يحسبون علوم الكون والحياة علومًا طفيليةً على دين الله ويظنون العبادة حمل السبح وتحريك حباتها بكلمات جوفاء أناس لا وزن لهم.

هذا النهج من الحياة ليس بإسلامي، ولسنا ننكره فقط لما فيه من غلو يجافي السنة كما يعرف جمهور العلماء، ولكنا ننكره لما يشعر به من أن الطاعة هي إدمان الذكر والقراءة والصلاة على هذا النحو المكرر الممل، أتحسب القاضي المنشغل بالفصل في الخصومات حين يسهر على تحضير قضاياه أقل رضاءً لله من هذا العاكف على قراءة كتابه؟ أتحسب المدرس المنشغل بحرب الجهل حين يسهر على تحضير دروسه أدنى حالًا من هذا الذاكر العاكف؟ لا بل كلاهما أقرب إلى الحق.

وأدنى إلى الرشد بل أن النائم المستغرق في منامه لطول ما كدح سحابة نهاره مجاهد ينام ويصحو بعين الله ما دام يحيا نظيف القلب حي الضمير ... إن الخطأ في فهم معنى العبادة مال بحضارتنا وثقافتنا عن السداد، وجعلنا نفهم الجهل علمًا والعلم جهلًا، وكان لذلك أثره الحاسم فيما أصاب أمتنا من انهيار» أ. هـ. [١]

موسى عليه السلام والعبد الصالح:

قصة أن الخضر – رضي الله عنه – حي يُرْزَق يسبح في الأرض قصة تافهة وسخيفة، ومع ذلك فإن أعدادًا من المتصوفة تتعصب لها وتجادل دونها كأنها من معالم الدين.[٢]

ذو القرنين:

اختلف المفسرون في شخصية هذا الرجل، والقول الشائع المشهور أنه الإسكندر المقدوني، وهذا القول الذي انتصر له الإمام الرازي وذهب إليه عامة علماء الإسلام، ولكنه قول لا وجه له، لأن الإسكندر المقدوني لا تتحقق فيه الصفات التي ذكرها القرآن في وصف ذي القرنين من اتصافه بالإيمان بالله وخشيته، والعدل والرأفة بالمفتوحين، وبناء السد العظيم.

وأرجح أن هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الإسكندر وسيرته في الحروب، وذهب بعض الفضلاء المعاصرين «أبو الكلام آزاد» إلى أنه الشخص الذي يسميه اليونان

١- انظر: ليس من الإسلام، الشيخ الغزالي، ص١٩٨، ١٩٩، ط دار الكتب الإسلامية الخامسة، ١٤٠٣هـ.

٢- انظر: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر للشيخ محمد الغزالي، ص٥٧، ط وهبة الثانية، ١٤٠٥هـ.





«سائرس» وتسميه اليهودي «خورس» ويذكره المؤرخون العرب بـ «كيخسرو».

ونحن نوافق على ما كتبه الأستاذ الشهيد/ سيد قطب في هذا المقام ويحسن بنا أن ننقله حرفيًّا قال رحمه الله: «إن النص لا يذكر شيئًا عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه، وهذه هي السنة المطردة في قصص القرآن فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود هو العبرة المستفادة من القصة والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان».[1]

وهذه سيرة الإنسان القوي العليم الذي يسخر القوى الكونية والمادية ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل، ويوسع فتوحه ومغامراته وهو في كل ذلك وفي أوج قوته وسلطته وسيادته، وتسخيره للقوى والأسباب مؤمن بربه خاضع له مؤمن بالآخرة ساع إليها مقر بضعفه رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة حام للحق، يستخدم كل قوته وجهده ومواهبه وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الصالح وإعلاء كلمة الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله.

(سيرة مثلها سليمان بن داود – عليهما السلام – في عصره ومثلها ذو القرنين في عصره ومثلهما الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون في عصورهم).[2]

يقول الأستاذ/ عمر عيد حسنة عن (ذي القرنين):

«قدم القرآن الكريم (ذي القرنين) أنموذجًا متجسدًا لربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج، واعتبر ذلك مقدمةً لا بد منها للنهوض والإنجاز الحضاري، وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنة نظريًّا فذو القرنين أتاه الله من كل شيء سببًا فأتبع سببًا وكان له التمكين في الأرض لأنه عرف السنة وانضبط بها.

سار في الأرض وكانت مساحة رحلته من مشرق الشمس إلى مغربها، وتعرف من خلال هذا السير إلى أسباب العجز الحضاري، والتحديات والمعاناة التي تواجه البشر، وأيقن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المتعة؛ فكان أشبه بالمهندس الذي

١- الصراع بين الإيمان والمادية، ص١٠١، ١٠٢، ١٠٣، وما بعدها، تأملات في سورة الكهف، ط دار القلم، الرابعة، ١٤١٥ه/ ١٩٩٥م.

٢- الصراع بين الإيمان والمادية، ص١٠٩، ١١٠، للشيخ أبو الحسن الندوي.





عرف أسباب التردي ووسائل التمكين في الأرض، ووضع الخطط، وأشرك الأيدي العاملة، واستحضر المواد المطلوبة لإتمام عملية الإنجاز.[1]

يقول الشيخ الغزالي معلقًا على قصة ذي القرنين:

«إنني عندما أقرأ خبر هذا الرجل أشعر بالحزن لأن الخبرة الفنية التي أبداها لا تعرف اليوم بين المسلمين، لقد انفرد الأجانب بها وأمسوا الخبراء المتخصصين فيها.

إن المهارة في شؤون الحياة صارت لديهم ملكةً راسخةً، والغريب أننا بدل أن نتعلم الإبداع في شؤون الدنيا تعلمنا الابتداع في شؤون الدين وأتينا بأمور ما أنزل الله بها من سلطان».

وكان من وراء ذلك فوضى عقلية وخلقية أخرتنا في معاشنا ومعادنا.[2]

ويقول أيضًا:

«هذا العمل فيما يتصور الناس ليس عمل عباد الله الصالحين ... لماذا؟

لأن عمل عباد الله الصالحين في تصور الأغبياء أن يضعوا مسبحةً بين أيديهم ثم يبدؤون العبث بحياتها، ويحسبون ذلك ذكرًا لله، وهو نسيان لله، ليس هذا تدينًا».[3]

***

١- الأستاذ عمر عيد حسنة، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، ص١٦، ١٧٢، ط المعهد العالي للفكر، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

٢- التفسير الموضوعي، ٢/ ٨٨، دار الشروق الأولى، ١٩٩٣.

٣- انظر: خطب الشيخ محمد الغزالي، ٣/ ٥٦، ط دار الاعتصام، ١٩٨٩م.





الباب الثالث:

العمل العمراني في السنة النبوية الشريفة

الفصل الأول: إرشادات النبي (ﷺ)

رفض البطالة والتسول

جاءت سنة النبي (ﷺ) القولية والفعلية مؤكدةً لمنهاج القرآن الكريم في تحقيق خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض وتطوير الحياة.

ومنهاج العمل الإنساني في الحياة عند النبي (ﷺ) مُنْتَزع من القرآن الكريم، والقرآن الكريم يسوي بين السعي في طلب الرزق، وبين الجهاد في سبيل الله تعالى، ويقول الله تعالى في سورة المزمل (٢٠): ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

في هذه الآية أنواع ثلاثة من المسلمين سامحهم الله تعالى في ترك قيام الليل مع النبي (ﷺ).

فالنوع الأول: سامحه الله تعالى بسبب المرض.

والنوع الثاني: سامحه الله تعالى بسبب السعي في الأرض لطلب الرزق عن طريق التجارة والزراعة والصناعة إلى آخره.

والنوع الثالث: سامحه الله تعالى بسبب الجهاد في سبيل الله.

وعند النظر بعين فاحصة إلى هذه الآية نرى أن الله تعالى قدم السعي في طلب الرزق على الجهاد في سبيل الله.

ولذلك يقول الإمام القرطبي – رحمة الله تعالى – (سوى الله تعالى في هذه الآية، بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، للنفقة على النفس والعيال فكان هذا دليلاً على





أن كسب المال بمنزلة الجهاد في سبيل الله تعالى.

ويذهب إلى مثل هذا الرأي أيضًا د/ سيد طنطاوي في تفسيره الوسيط. وفي القرآن الكريم أيضًا قول الله تعالى في سورة الملك (١٥): ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

في هذه الآية يؤكد الحق – سبحانه وتعالى – بأن تفضل على الإنسان بتمكينه من الحياة على الأرض، وجعل هذه الحياة سهلةً، وذلك بتسوية الأرض، وخلق أساسيات الحياة عليها، أو بلغة زماننا، وضع البنية الأساسية في الأرض، ويبقى على الإنسان أن يستغل هذه الهبات الإلهية العظيمة ويزرع الأرض، ويطور الحياة بالتجارة والصناعة، وكل ما يحتاج من مواد أولية أو جدها الحق – سبحانه وتعالى – في الأرض وهو في الآية يأمرنا بالسعي في الأرض والأكل في رزقه.

وبعض الناس يفهمون أن الأكل من الرزق – الله تعالى –يعني الأكل من الزرع، والثمار الموجودة بطبيعة في الأرض – أي التي أوجدها – الله تعالى – من غير عمل الإنسان – ويمكن لهذا الفهم أن يكون مقبولًا عند بدايات الحياة، وندرة وجود الإنسان على الأرض، أما وقد ازدحمت الحياة بالناس، فإن موارد الغابات من الثمار والزروع لا تكاد تكفي مجموعةً قليلةً من البشر، ولذلك فقول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ (الملك:١٥)؛ يعني: ازرعوا واصنعوا واستخرجوا كنوز الأرض، واجعلوا لأنفسكم حياةً كريمةً عليها، والرزق هنا هو العمل في طلب الرزق، فالأمة التي تملك الرزق المباشر – كالبترول مثلًا – يمكن أن تبدده في سنوات قليلة، والأمة التي تملك العمل فإنها تملك ثروةً لا يبددها الزمان، بل تتجدد وتنمو بتراكم الخبرة المكتسبة من العمل، وكل هذا نلمسه في وقتنا الحاضر.

هذه إشارة موجزة لمنهاج القرآن الكريم في ترسيخ قيم العمل في بناء الحضارة الإنسانية، ومن هذا المنهاج استقى النبي (ﷺ) منهاجه، وهذه الجملة من توجيهاته (ﷺ) لأمته في عمارة الأرض، وتطوير الحياة.

(١) قوله (ﷺ): «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلةً؛ فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل، فله بذلك أجر**». (مسند أحمد ٩/٣ ط بيروت).

في هذا الحديث يقول النبي (ﷺ) إذا قامت القيمة والرجل منكم يعمل في حقله





يغرس الفسائل، وهي الشجيرات الصغيرة ... قامت القيامة وأوشك العالم كله في الدمار، وبقيت شجيرة صغيرة في يد هذا الرجل، فإذا استطاع أن يغرسها قبل أن يصل التدمير إلى المكان الذي يقف فيه، فعليه أن يغرسها، وسوف يكون له بذلك أجر كبير عند الله سبحانه وتعالى.

وكل الذين يدعون إلى العمل والإنتاج في الماضي والحاضر والمستقبل تتوارى دعواتهم أمام هذا النص الجليل، ومن واجب الدعاة إلى – الله تعالى – في بلاد المسلمين أن يجعلوا من هذا النص منهاجًا لدعوتهم، لأن النبي (ﷺ) يطلب من المسلم أن يحرص على العمل الدنيوي اليدوي إلى ما بعد قيام الساعة لو استطاع ذلك.

(٢) ويقول النبي (ﷺ) وهو يحث على العمل اليدوي: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**».[١]

قد يأكل الإنسان من ميراث والديه أو أحدهما، وقد يأكل من المال الذي يكسبه أولاده، وهذا وذاك مفروض ومباح لا شيء فيه، ولكن النبي (ﷺ) يجعل أفضل الطعام للعبد وهو الذي يأكله من عمل يده، ويستدل على ذلك بأن هذه الميزة لا تقف عند الإنسان العادي، بل هي محور وجود الإنسان الفرد، فنبي الله تعالى داود – عليه السلام – كان يأكل من عمل يده، ولم تشفع له النبوة والاصطفاء في أن يأكل من عمل يد غيره من الناس.

(٣) والنبي (ﷺ) يجعل جوهر كرامة الإنسان الأساسية في العمل مهما كان شأن هذا العمل طالما أنه يقع في دائرة المباح فيقول: «**لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه**».[٢]

في هذا الحديث نظرة إلى قيمة العمل في حياة الإنسان، فهو – كما أسلفنا – عماد الكرامة والعزة الإنسانية، فها هو الحبيب المصطفى (ﷺ) يرى أن قطع الحطب وحمله على الظهر وبيعه – للحصول على ثمرة العمل – خير من سؤال الناس – بما فيهم العصبة

١- أخرجه البخاري في فتح الباري في كتاب البيوع بابا كسب الرجل وعمله بيده.

٢- أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، وابن ماجه في كتاب الزكاة باب كراهة المسألة ١/ ٥٨٨.





والقرابة – سواء أعطوه وأشبعوا حاجاته أم منعوه.

فالعطاء والمنع لا قيمة لهما بعد صدور السؤال من الإنسان، فالقضية عند النبي (ﷺ) هي أن تسأل أو تعمل، وليست قضية عطاء ومنع، لأن السؤال يلغي مهمة الإنسان في الخلافة، ويدخله دائرة العجز.

والنبي (ﷺ) يقول: اتق الله ولا تعجز؛ لأن العجز إلغاء للخلافة، ومحو للإنسانية، والله تعالى قد أعطى الإنسان قدرات كثيرة يستطيع أن يعمل بها، ولو فقد عضوًا أو أكثر من أعضائه فهو قادر دائمًا حتى الموت، أما أن يترك الإنسان العمل، ويلجأ للتسول بحجة العجز أو بحجة أنه ينتمي إلى ولي معين، فذاك ما يرفضه رسول الله (ﷺ).

ولا يقف على عظمة هذا الحديث إلا من يدرس سيكولوجية – نفسية – المتسول، ويدرك مدى الانحطاط الذي أصاب هذه النفس التي خلقها الله – تعالى – كريمةً عزيزةً، وكيف أن العاطل عن العمل لا يفكر في خير أبدًا، وكيف أن الرجل العاطل من السهل أن يفرط في دينه وعرضه وكل مقدس له، ولا يشعر لذلك بشيء من الحزن والأسى كما نظن ونحن نشاهده من بعيد.

إن القعود عن العمل كون لديه أخلاقيات وأنماطًا من السلوك لا أصل لهما في كل الأديان السماوية، أو التجارب الإنسانية، ومن هنا جاء حديث النبي (ﷺ) علاجًا كافيًا وبلسمًا شافيًا.

(٤) سُئِل رسول الله (ﷺ): أي الكسب أطيب؟ فأجاب: «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور».[١] والرسول (ﷺ) يركز في توجيهاته الشريفة على عمل اليد.

وقد يقول قائل: لقد تقدمت الصناعة وأصبحت الآلات هي التي تصنع، وهذا القول مردود عليه لأن الآلات التي تصنع صنعها الإنسان بيده، قبل أن تصنع هي منتجاتها.

والرسول (ﷺ) يركز في أحاديثه على الأساسيات ويترك الفرعيات لأنها في تغير وتطور دائم لا حدود له، ومع تقدم الصناعة في كل دول العالم، فلا غنى عن العمل اليدوي أبدًا، هذا من ناحية.

١- أخرجه الترمذي في كتاب الأحكام باب أن الوالد يأخذ من مال ٣/ ٦٣٠ والدارمي في كتاب البيوع باب في الكسب وعمل الرجل بيده ٢/ ١٦٢، طبعة دار المحاسن، القاهرة.





ومن ناحية أخرى فالنبي (ﷺ) يلفت نظرنا – وهو يسبق الزمن – إلى أنه إذا جاء الوقت الذي تقوم فيه الآلات بكل شيء فلا يجوز للإنسان الفرد أن يترك العمل اليدوي، لأن في ذلك هلاكه، واعتلال صحته بما يُسَمى بأمراض الرفاهية، مثل أمراض القلب وتصلب الشرايين، والشيخوخة المبكرة، وفوق ذلك تعطيل الجهاز الإنساني الذي خلقه اللّه تعالى للعمل وللحركة حتى أثناء النوم.

(٥) ويُرْوَى أن الرسول (ﷺ) قد سلم على رجل فأدرك خشونةً في يده فسأله: «ما بال كفيك قد أملجتا؟» فيقول الصحابي: من أثر العمل يا رسول اللّه، فيرفع الرسول (ﷺ) كفيه أمام جمع من الصحابة ويقول: «كفان يحبهما اللّه ورسوله».

وليس بعد هذا دلالة على احترام العمل اليدوي الدنيوي – كما يحلو للبعض أن يسميه – لأن العمل اليدوي هو خلافة اللّه تعالى للإنسان في الأرض، وهو من هذه الناحية يُعْتَبر جوهر الإنسان الفرد في رحلته الحياتية، بمعنى أن الإنسان لا يعمل إنسان يفقد ذاته، بل يفقد معنى وجوده في الحياة.

ويسير بنا الحديث الشريف عند نهايته إلى توجيه آخر للمصطفى (ﷺ) وهو «كفان يحبهما اللّه ورسوله» فإن أملجتا (أي تشققتا)، واللّه ورسوله يحبان الكفين المتشققتين، فأين مكان الأكف الناعمة من حب اللّه تعالى وحب رسوله (ﷺ) يشير الحديث إلى أنها لا تنال هذا الشرف، وإن كانت نعومتها من الجلوس للعبادة ليل نهار، لأن اللّه تعالى حدد أوقات العبادة، وترك أوقات العمل من غير تحديد، فمن الذي يحدد على اللّه تعالى من جديد.

(٦) ويقول رسول اللّه (ﷺ): «من أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورًا له».[1]

في هذا الحديث يدخل النبي (ﷺ) العمل الدنيوي اليدوي في الإطار العام للعبادة – ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) – ويجعل من عناء العمل في الأرض والجهاد المترتب عليه سببًا للمغفرة من الذنوب، ولم يعين لنا رسول اللّه (ﷺ) أنواع الذنوب التي تُغْفر بعناء العمل، بل ترك باب الرحمة مفتوحًا حتى يحرك العاطفة الإيمانية ويوجهها لإعمار الأرض وتطوير الحياة.

١- ذكره صاحب كنز العمال (المتقي الهندي) ج٤/ ٧، حديث رقم ٩٢١٤، وعزاه إلى الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس.





(٧) رفض البطالة والتسول:

وبقدر ما يحض رسول الله (ﷺ) على العمل العمراني لخلافة الله – تعالى – في الأرض بقدر ما يرفض البطالة والتسول، ويعتبر ذلك خروجًا عن طبيعة الإنسان الخليقة، وانتكاسًا لفطرته العملية، وفي ذلك يقول:

أولًا: «من سأل الناس تكثرًا، فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر».[١]

ثانيًا: ويقول (ﷺ): «المسألة كلوح في وجه صاحبها يوم القيامة».[٢]

ثالثًا: ويروي أبو عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي: «كنا عند رسول الله (ﷺ) فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثي عهد ببيعته، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فقال – عليه الصلاة والسلام – : ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا وقلنا علام نبايعك؟ فقال على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا ولا تسألوا الناس شيئًا».

يقول عوف بن مالك: «فلقد رأيت بعض أولئك النفر، يسقط سوط أحدهما فلا يسأل أحدًا يناوله إياه».[٣]

رابعًا: ويقول (ﷺ) لقبيصة بن المخارق: «يا قصبية؛ إن المسألة لا تُحَمل إلا لأحد ثلاث:

– رجل تحمل حمالةً – أي تحمل مالًا من طرف في خصومة بين فريقين من المسلمين – فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك.

– ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

– ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

وما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت؛ يأكلها صاحبها سحتًا».[٤]

١– أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، حديث رقم ١٠٥، طبعة عيسى الحلبي، وابن ماجه في كتاب الزكاة باب من سأل عن ظهر غنى ١/ ٥٨٩، طبعة دار إحساء الكتب العربية.

٢– أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة باب كم يعطي الرجل الواحد من الزكاة ٢/ ١١٩، طبعة المكتبة العصرية، بيروت.

٣– أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة ٢/ ١٢١.

٤– أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، حديث رقم ٩٤، ٩٥، طبعة عيسى الحلبي والنسائي في كتاب الزكاة، باب السيد





خامسًا: ويقول النبي (ﷺ): «اليد العليا خير من اليد السفلى»، ويقول (ﷺ): «واستعف عن السؤال وعن المسألة ما استطعت»، ويقول: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله».[1]

التعليق على الأحاديث الشريفة

في الحديث الأول: يقول النبي (ﷺ): «من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر».

يوضح النبي (ﷺ) أن سؤال الناس لا يكون إلا للضرورة، وأن من يسأل الناس بغرض أن يثري عن طريق التسول فإنه لا يدخر مالًا وإنما يدخر نارًا في جسده يوم القيامة – بل لم يحدد ذلك – وأكاد ألمح أن الجمر الذي يدخره المتسول سيكون في الدنيا والآخرة على السواء.

ففي الدنيا: هذا الرجل قد جمع مالًا من غير عمل وجهد مبذول، فأصبحت ثروته المدخرة بلا رصيد من عمل، أي أنها لن تجد القبول الاجتماعي، لأن الإنسان يدخر حتى يحصل على قبول اجتماعي يناسب حجم ثروته، وكأن الثروة تتلخص في النهاية في كونها تساوي قدرها من القبول الاجتماعي والتقدير العام.

ولكن العاطل المتسول إذا جمع ثروةً وواجه بها المجتمع فإن المجتمع لن يشعر تجاهه باحترام أو تقدير، لأن هذه الثروة عبارة عن تلك القروش التي حصل عليها المتوسل من المجتمع أصلًا، وتراكمت حتى أصبحت ثروةً بلا رصيد اجتماعي لأنها تكونت من غير عمل وجهد مبذول.

تنطبق هذه الحال على تكوين الثروات من خلال الرشوة، أو الأعمال التي تضر الوطن وتضر حاضر المسلمين ومستقبلهم، وأصحاب هذه الثروات لا يشعرون براحة أو سعادة لأنهم يعرفون أنهم لا فضل لهم في تكوين هذه الثروات.

ومع الوقت، ورفض المجتمع السلبي لهذه الثروة بالإضافة إلى مؤاخذة الضمير الإيماني

السفلي ٥/ ٦١ طبعة دار الفكر.

١- أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة ٢/ ١٢١، وباب من يعطي من الصدقة ٢/ ١١٨.





والإنساني، فإن أصحاب هذه الثروة يشعرون بها وكأنها حجر يكوي جنوبهم وظهورهم وقلوبهم وعقولهم.

هذا في الدنيا؛ وفى الآخرة سيكون جمرًا حقيقيًّا لأن تكوين ثروة من غير عمل يُعْتَبر نسفًا لفكرة الخلافة من أساسها، والنبي (ﷺ) يضع المتسول والمرتشي، وكل الذين يحصلون على المال من غير عمل أمام هذه الحقائق، ويترك لهم الاختيار.

وفي الحديث الثاني: يقول النبي (ﷺ): «المسألة كلوح في وجه صاحبها يوم القيامة».

في هذا الحديث يبين لنا الرسول (ﷺ) أن المسألة – أي التسول – ستكون علامةً في وجه السائل يوم القيامة ليعرف كل الخلق وكل البشر أن هذا الإنسان ترك واجب الخلافة والعمل في إعمار الأرض، وسلك طريقًا سلبيًّا لجمع المال من غير جهد مبذول، وكأن – الله تعالى – يميزه بشيء يبعده عن الخلافة، لأن الخليفة الحقيقي لا يكون متسولاً، ولو كان التسول من النشاط الإنساني المركوز في الفطرة ما نزل الإنسان إلى الأرض، ولا كان له دور فيها.

وفي الحديث الثالث يروي أبو عبد الرحمن بن عوف بن مالك: «كنا عند رسول الله (ﷺ) فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثي عهد ببيعته، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله!

فقال (ﷺ): ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا وقلنا علام نبايعك؟ فقال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا ولا تسألوا الناس شيئًا.

يقول عوف بن مالك: فلقد رأيت بعض أولئك النفر، يسقط سوط أحدهم، فلا يسأل أحدًا يناوله إياه».

في هذا الحديث مبايعة موقعة بتشابك الأيدي، وإشهاد الحق – سبحانه وتعالى – ومثل هذه البيعة لا تكون على الأمور العادية كاستعمال السواك، وإطلاق اللحية، وستر العورة، والخشوع في الصلاة، والإكثار من الصدقة ... إلخ، إنما هذه البيعة لا تكون إلا على الأمور المهمة والخطيرة في الإسلام والتي تتعلق بمهمة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وقد أمر الله تعالى نبيه (ﷺ) بأخذ البيعة على الرجال والنساء في الأمور المهمة،





وعن بيعة النساء يقول الحق سبحانه وتعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الممتحنة:١٢).

هذه البيعة تتم على ما يلي:

(١) عدم الإشراك بالله سبحانه وتعالى.

(٢) عدم السرقة.

(٣) عدم الزنا.

(٤) عدم قتل الأولاد.

(٥) الحفاظ على الأنساب والأعراض.

(٦) طاعة الرسول (ﷺ) الكاملة.

هذه المبادئ الستة تمت البيعة عليها بأمر مباشر من الله –سبحانه وتعالى– وهي أمور لا يمكن أن يكون للدين قوام بدونها، ولا تستغني عنها الحياة الكريمة العفيفة التي يريدها لنا الحق – سبحانه وتعالى –.

وبالنظر في هذه المبادئ نجد أن المخالفة فيها جميعًا تستوجب الحد الذي يصل إلى القتل في بعضها والجلد حدًّا أو تعزيرًا في بعضها الآخر، وعلى هذا تكون البيعة دائمًا على أمور جليلة وخطيرة في نفس الوقت.

وفي الحديث الشريف: نجد أن البيعة قد تمت على ما يلي:

١– عبادة الله وعدم الإشراك به.

٢– السمع والطاعة؛ أي الطاعة الكاملة بعد سماع الأمر الديني أو قراءته.

٣– ترك سؤال الناس: وقد نُكِّرت كلمة (شيئًا) لتفيد العموم والشمول لكل الأشياء.

هذه مبادئ ثلاثة:

يتعلق الأمر الأول: منها بأساس العقيدة الحقيقة (عدم الإشراك بالله تعالى).

ويتعلق الثاني: بالخضوع للدين والطاعة فيه، وهذه الطاعة في الدين تجلب لصاحبها





السعادة في الدنيا والآخرة.

والأمر الثالث: يتعلق بجوهر خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض، واعتماده على نفسه، وحل مشكلاته بطريق الكدح والعمل المستمر، وليس بطريق التسول عند البعض وادعاء الكرامات والخرافات والسحر عند البعض الآخر.

والصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا في غاية اليقظة والفهم في التعامل مع النص الديني، فراوي الحديث أبو عبد الرحمن عوف بن مالك يقول: لقد رأيت أولئك النفر – وغيرهم – يسقط سوط أحدهم، فلا يسأل أحدًا يناوله إياه.

لقد جُبِلوا بعد هذا الحديث على الاعتماد على النفس، لأن الأمر الديني كان يتحول إلى ما يشبه الفطرة عند صحابة رسول الله (ﷺ).

فالسوط يسقط من الفارس وهو على جواده، فلا يطلب من أحد من المترجلين أن يناوله إياه، مع أن البيعة كانت على الاعتماد على النفس في حل المشكلات وإقامة خلافة الله – تعالى – في ذات الإنسان قبل إقامتها في الأرض والحرص على العمل والإنتاج لتأسيس دولة قوية تدافع عن شرع الله – سبحانه وتعالى – وقد فعل الصحابة كل هذا، وزادوا عليه كعادتهم في التحرز عن المباحات.

إننا يجب أن نشعر بحرج من أنفسنا حين نراجع سلوك هؤلاء الأوائل وفهمهم الجيد لكتاب الله – تعالى – وسنة رسوله (ﷺ).

الحديث الرابع: يقول رسول الله (ﷺ) لقبيصة بن المخارق: «يا قبيصة؛ إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:

– رجل تحمل حمالةً؛ أي تحمل مالًا من طرف في خصومة بين فريقين من المسلمين، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك.

– ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

– ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

وما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت، يأكلها صاحبها سحتًا».

في الحديث السابق بايع الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله (ﷺ) على ترك





المسألة نهائيًّا، والاعتماد على النفس في الحصول على الرزق، وحل المشكلات، لكن الإسلام دين واقعي وليس دينًا خياليًّا، فقد تحدث بعض كوارث في حياة الأفراد تقضي على ثروتهم أو تمنعهم من تكوين ثروة، وتمنعهم من الحصول على الكفاف من الرزق.

ولذلك فقد استثنى رسول الله (ﷺ) في هذا الحديث ثلاثة، أباح لهم المسألة إباحةً مؤقتةً وليست إباحةً مستمرةً، لأنه يرجو أمةً عاملةً منتجةً، ويرفض أن تكون أمته أمةً خاملةً متسولةً، ولذلك أباح السؤال لمن أُصِيب بكارثة في ماله إباحةً مؤقتةً، ولثلاث حالات فقط:

الحالة الأولى: رجل تدخل لفض نزاع بين رجلين أو أسرتين من المسلمين أو قبيلتين، وضمن أحد الطرفين في سداد ما عليه ولكنه لم يسدد، فقام هذا الرجل – الضامن – بالسداد، فقضى هذا السداد على كل ماله، فهنا يسمح له النبي (ﷺ) بالسؤال حتى يحصل على قوته فقط، وليس لتكوين ثروة كما يفعل بعض الناس.

الحالة الثانية: رجل أصابته جائحة – كارثة: مصيبة – قضت على كل ماله، فله أن يسأل حتى يحصل على القوت الضروري.

الحالة الثالثة: رجل أصابته فاقة – نتيجة مرض وعجز عن الكسب؛ فتحل له المسألة حتى يُشْفَى ويزاول عمله وكسبه من جديد، إلا أن عجزه الحقيقي عن الكسب يحتاج من المجتمع قبل أن يُنْفَق عليه أن يتثبت من عجزه عن طريق إقرار ثلاثة من ذوي الخبرة والفطنة بعجز هذا الرجل عن الكسب.

وفي هذا دليل على الواجب الواقع على المجتمع والأفراد في مقاومة التسول، فهذا الرجل يموت جوعًا، ولكن رسول الله (ﷺ) يشترط لإطعامه إقرار ثلاثة من ذوي الخبرة بعدم قدرته على الكسب والعمل المنتج.

ويبقى في الحديث فوائد لا يمكن حصرها، ولكن يمكن أن نأخذ منها ما يلي:

(أ) عدم تهاون المجتمع مع المتسولين.

(ب) تعاون المجتمع مع العاملين المنتجين ومساعدتهم إذا ألمت بهم ظروف قاسية.

(ج) لا يُعْطَى أحد يدعي العجز إلا بإقرار ذوي الخبرة.

(د) أن يكون العطاء مؤقتًا وعلى قدر الحاجة حتى يعود إلى عمله، ولا يتكل على هذا العطاء.





وفي هذا محاربة من المجتمع للتسول والقعود عن العمل، ولا يريد رسول الله (ﷺ) بهذا الحديث أن يضيق على أصحاب الأعذار الثلاثة، ولكنه يحارب التسول، وهو لا يحارب التسول لذات التسول، ولكنه يحاربه لأنه يقضي على الخلافة، ويجعل الإنسان عاجزًا عن أداء دوره الذي خُلِق له، وهو إعمار الأرض وتطوير الحياة.

ولا يقتصر سؤال الناس على التسول كما يُفْهَم من النص الشريف، ولكنه يعم كل كسب غير حلال أو من غير عمل، فتدخل فيه الرشوة واستغلال النفوذ والسلطان ... إلى آخر هذه الطرق الشيطانية في الكسب والحصول على المال الحرام.

العلاج النفسي لمن يسأل الناس أموالهم

ينقلب التسول – مع الوقت – إلى عادة ذميمة تنطبع في سلوك المتسول وتشغل حيزًا من وجدانه، وهذا أخطر شيء يتعرض له المتسول وهو يمارس هذه العادة اللعينة.

ولذلك يضع رسول الله (ﷺ) العلاج الناجح لهذه العادة فيقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[1]، وهو بذلك يصل إلى الغاية من سؤال الناس، عند بعض المتسولين، فالإنسان يتسول ليجد قوتًا من غير عمل، وهذه صفة الغالبية العظمى من المتسولين، وهناك من يتسول لكنز المال من غير عمل، ورسول الله (ﷺ) يقول لهؤلاء وهؤلاء: خاب مسعاكم وضل هدفكم لأنكم خسرتم ذاتكم، لقد تركتم العمل وهو رسالة الإنسان على الأرض، وظننتم أن المال هو الغاية من وراء العمل.

ولكن العمل غاية في نفسه، وها هو الذي عمل وكسب يعطيكم من فضل ماله، وهو أفضل منكم، وإن كان أقل منكم في النوافل، والرسول (ﷺ) حين يطلق كلمة اليد يطلقها لتعم كل الناس الذين يعطون؛ فهم خير بعطائهم، وهم أفضل من الذين يتسولون ولا يعملون، ولعل هذا هو أكبر تكريم للعمل والعاملين المنتجين.

وهذا العلاج النفسي في هذا الحديث يدور حول الغاية من كسب المال وأنها لا تتحقق إلا بالعمل؛ فالمال لا يضيف للإنسان قيمةً ورُقيًّا إلا إذا جاء عن طريق العمل، وهذا النوع

١– أخرجه الدار قطني في كتاب الزكاة، باب لا تحل الصدقة لغني ٢/ ١١٨، وأوب داود في كتاب الزكاة باب الاستعفاف في المسألة ٢/ ١٢١.





من العلاج النفسي للمتسول يتجه إلى أساس المرض، ولا يدور حول المرض كما يفعل الطب النفسي المعاصر.

ويقول رسول الله (ﷺ):

« ... **فاستعف عن السؤال، وعن المسألة ما استطعت**».

ويقول: «ومن يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله».

في هذين الحديثين الشريفين يستنهض النبي (ﷺ) همم الذين تضطرهم ظروفهم للسؤال استثناءً وليس أصلًا في حياة المسلم العزيز الكريم، وأن الإنسان لو تحمل ما يعانيه بعض الشيء فإن الله تعالى يأتيه بالفرج، ولكن عن طريق العمل وبذل الجهد.

وهذا ما نلاحظه من قوله: «ومن يستعف، يستغن، يتصبر» فهذا التفاعل في الأفعال الثلاثة جهد وعرق، ولولا ذلك لجاءت الصيغة مغايرة؛ فكان يصبر مثلًا يأتي مكان يتصبر، وشتان ما بين الفعلين من بعد المسافة وتناهي المنزلة.

فالتصبر عمل دائم لحل المشكلة خطوةً خطوةً، فالتصبر هو رؤية الحل عن طريق العمل وبذل الجهد، والرسول (ﷺ) يقول للمتسول: لا تجلس متبلدًا تجاه المشكلة، ولكن انهض لحلها، وهذا ما يُؤْخَذ من التوجيه العام العمراني في السنة الشريفة، وأن العمل العمراني هو قوام الدولة القوية، وهو عماد الخلافة لله تعالى في الأرض.

***



الفصل الثاني: الجانب العملي العمراني

في حياة النبي (ﷺ)

كلامه ونومه (صلى الله عليه وسلم)

جانب الخلافة أو جانب العمل العمراني كان من أبرز الجوانب في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) لأن العبادة مثلًا: منها ما يظهر أمام الناس في كل الأوقات مثل الفروض، ومنها ما لا يظهر إلا في بعض الأوقات مثل النوافل، ولكن العمل العمراني هو ذلك المسلك الظاهر دائمًا أمام الناس.

وكان النبي (ﷺ) الأسبق في هذا المجال؛ إلا أن ظروف العرب التاريخية والجغرافية (قلة النشاط الإنساني بسبب ظروف الصحراء) منعت كتاب السير والمؤرخين العرب، ومن نقل عنهم من الاحتفاء والاحتفال بهذا الجانب العظيم من حياة النبي (ﷺ).

وفي العصر الحديث وجد أعداء الإسلام والكسالى من أبنائه في ذلك فرصةً سانحةً للدعوة إلى الخمول وترك العمل العمراني، واستعانوا ببعض النصوص التي ساعدهم قلب معناها على تركيز وتحبيذ هذا الاتجاه عند الأمة.

والنبي (ﷺ) كان إذا أراد أن يحدث أصحابه جلس بينهم في وقت محدد من كل أسبوع في غالب أمره، وكان يجلس أحيانًا متكئًا من فرط ما ناله من الجهد في العمل العمراني.

ورواة الأحاديث الشريفة نقلوا إلينا هيئة هذه الجلسة في رواياتهم؛ فظنت الأجيال اللاحقة أن كثرة الجلوس والاتكاء سنة عن النبي (ﷺ) بالإضافة إلى كثرة الكلام وإطالة الحديث، والنبي (ﷺ) من كل ذلك براء.

وأصبح العلماء يصنعون لأنفسهم أو تُصْنع لهم الأرائك للاتكاء عليها وقت إلقاء المواعظ، وفي كثير من المساجد توجد الأرائك المعدة للعلماء. وفي كثير من الدول العربية تُنْشَأ أماكن للجلوس والحديث فقط، وتُوضَع الفرش فيها فوق الأرض تحفها فوق الأرض تحفها وسائد كبيرة وغليظة للاتكاء.



والباحث في سنة النبي (ﷺ) يجد أنه (ﷺ) لم يكن كثير الكلام ولا كثير الكلام ولا كثير النوم.

فبالنسبة للكلام – وهو بضاعة الواعظ والعلماء – : كان (ﷺ) يعبر عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وذُكِر أن من خصائصه النفسية أنه (أُوتِي جوامع الكلم)، وقد دفعني هذا الحديث الشريف إلى جمع الأحاديث الصحيحة في كل من البخاري ومسلم.

فكانت في البخاري (٤٠٠٠) أربعة آلاف حديث،[1] وكانت في مسلم (٤٠٠٠) أربعة آلاف حديث،[2] ومن الممكن أن نصل بهذا العدد إلى (٨٠٠٠) ثمانية آلاف حديث لما عساه أن يكون قد صح في الكتب الأخرى غير البخاري ومسلم، ثم قسمت هذا العدد على الأيام التي قضاها النبي (ﷺ) في الدعوة إلى كالآتي:

٢٣ سنةً × ١٢ شهرًا × ٣٠ يومًا = ٨٢٨٠ يومًا.

٨٠٠٠ ÷ ٨٢٨٠ = واحد حديث في اليم الواحد تقريبًا.[3]

ومن هنا يتضح أن النبي (ﷺ) حدث أصحابه بما يعادل حديثًا واحدًا كل يوم، وإذا رجعنا لقاعدة (أُوتِيت جوامع الكلم) وجدنا أن متوسط إلقاء الحديث يعادل دقيقةً واحدةً في اليوم، فتكون نسبة التوجيه النظري إلى نسبة العمل العمراني في حياة النبي (ﷺ) هي ١: ١٤٤٠، ومن هنا ندرك إدراكًا علميًّا كيف أسس الرسول (ﷺ) الدولة ونظم الأمة، وكشف الغمة عن البشرية جمعاء.

وكيف كان يدرب الفتيان في أطراف المدينة، وينظم الجيوش للوصول إلى أطراف العالم.

والعالم الإسلامي لا يحتاج إلى تقليد اليابانيون والألمان فقط؛ بل يحتاج العالم الإسلامي إلى التأسي بالنبي (ﷺ) تأسيًّا حقيقيًّا من خلال سنته المنطبقة على عطائه الحضاري، لا من خلال سنته كما يراها الكسالى وأصحاب الفهم السقيم، أو الفهم اللئيم من أعدائنا الذين يزينون لنا في كل محفل فهمنا العقيم لسنة النبي (ﷺ).

١- مقدمة ابن الصلاح، ص١٠، ١١، ط مكتبة المتنبي بالقاهرة.

٢- تدريب الراوي، جزء٢ ص١٠٤، طبعة دار الكتب الحديثة، ط٢.

٣- وقد يقول قائل بأن عدد الأحاديث الصحيحة ضعف هذا العدد فتكون النتيجة حديثين كل يوم أو أربعة أضعاف العدد فتكون النتيجة ٤ أربعة أحاديث في كل يوم، ومهما ضاعفنا هذا العدد فلن نشغل ساعةً كاملةً من اليوم.





والنقلة الحضارية الضخمة التي أحدثها (ﷺ) في جزيرة العرب، وفي العالم أجمع من خلال أصحابه تشهد بذلك.

وبالنسبة لنومه (ﷺ): فقد توافرت النصوص في القرآن الكريم والسنة الشريفة التي تؤكد قلته، وأحيانًا ندرته، ففي القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾ (المزمل:١-٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ (الإسراء:٧٩).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ (ق:٤٠).

وفي السنة الشريفة تواترت الروايات التي تثبت قيامه الليل وقلة نومه. وكأنه كان يجود العبادة ليلًا، والعمل العمراني نهارًا.

وكان يشتد في عبادة الليل حتى كانت تقول له السيدة عائشة: أفتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فكان يرد عليها: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»، وهكذا تكثر روايات السنة الشريفة التي تثبت خفة حركة النبي (ﷺ) وقلة نومه.

العمل العمراني في حياة النبي (ﷺ)

الموقف الأول: رعي الغنم

ذهب النبي (ﷺ) مع حليمة إلى بني سعد لكي تقوم بإرضاعه بدلًا من أمه، وفى نهاية إقامته (ﷺ) في بني سعد اشتغل برعي الغنم لحليمة وأسرتها مع إخوانه مع أبنائها وكأن النبي (ﷺ) كان على موعد مع العمل العمراني منذ طفولته.

ففي هذه السن المبكرة ينزع الغلمان إلى اللهو واللعب، ولكن رسول الله (ﷺ) تاقت نفسه إلى العمل وبذل الجهد وتطوير الحياة منذ طفولته المبكرة، ثم قام برعي الغنم بعد ذلك في شبابه، وقد نبهنا (ﷺ) إلى أن العمل العمراني من شيم الأنبياء والمرسلين جميعًا، فيروي ابن اسحاق قوله: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قِيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا».

وفي البخاري: «كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».





وهي بداية طيبة في العمل والعرق وبذل الجهد تحت لهيب شمس جزيرة العرب.

الموقف الثاني: التجارة في الشام

وبعد رعي الغنم وما يتركه من أثر عظيم في بناء الشخصية الإنسانية تأتي التجارة وهي نشاط إنساني يكسب النفس خبرةً كبيرةً بأحوال النفوس والبلاد؛ فهي نشاط نفسي اقتصادي، وهي عمل جاد تحكمه آليات السوق، ومساحة لا مكان فيها لخامل كسول، فالتجارة تقوم على حساب المال والوقت ودراسة المكان، والنشاط.

الخروج

عقد أبو طالب العزم وجهز نفسه وأحضر الزاد والراحلة، وبعد أن اطمأن على أحوال ابن أخيه محمد (ﷺ) وعلى مقامه في مكة أثناء غيابه في الشام ولم يكن يتخيل أن ابن أخيه لديه رغبة في الحركة والفاعلية والتفاعل مع العالم الذي يحيط به، ولذلك أصابه الذهول عندما أخبره الفتى[1] الصغير محمد (ﷺ) أنه يعتزم الذهاب معه إلى الشام من أجل التجارة، وأنه لا يستطيع أن يعيش في خمول وكسل، أو لهو ولعب مثل باقي فتيان مكة.

ويظهر تشبث النبي (ﷺ) بهذه الرحلة من عبارة ابن إسحاق (ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرًا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير، صب إليه رسول الله (ﷺ)، فرق له وقال: والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا.[2]

والصبابة دقة الشوق، والتعبير بـ (صب إليه) يشعر القارئ بالعزم القوية عند رسول الله (ﷺ) للذهاب إلى الشام من أجل العمل والتجارة.

إن الأطفال في هذه السن الصغيرة يرقون إلى اللهو واللعب، ولكن صاحب الفطرة السليمة يرق إلى الجد والعمل والعطاء، ويشعر أن كل لحظة في الحياة لا بد أن تُؤَدى لصالح الخلافة وتطوير الحياة، حتى النوم عند أصحاب الفطرة السليمة يكون من أجل إراحة الجسد، لاستئناف العمل ولا يكون خمولًا وكسلًا وقتلًا للوقت كما تفعل المجتمعات المتخلفة الآن.

إن الإنسان الصالح يؤدى عمله العمراني على اعتبار أنه واجب خلافة وحياة، ولكن رسول

١- تقدر الروايات عمر النبي (ﷺ) في هذه الرحلة بتسع سنين أو باثنتي عشرة سنة، والنفس تميل إلى التقدير الأجير.

٢- ابن هشام ١/ ١٦٥، ط مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٩٠م.





الله (ﷺ) – وهو ما يزال طفلًا – يؤدي عمله العمراني بشوق وحب وإقبال تعجز العقول عن فهم أسبابه وأهدافه على السواء.

ولو تلقفت الذهنية العربية فحوى هذا التعبير (صب إليه) – من أجل الخروج للعمل – مبكرًا، وقام العلماء بمحاولة فهم هذا التعبير وتحليله لكان لهذه الأمة شأن آخر، ولكن من يقرأ أخبار هذه الرحلة في المراجع العربية القديمة يجد تركيزًا على قصة الراهب بحيرى؛ على عادة العرب الاحتفاء بالخبر وترك مدلوله.

ولم يفطن أحد إلى تعبير ابن إسحاق (صب إليه)، ومهمة العمران التي كان يقوم بها رسول الله (ﷺ) وقصة الراهب بحيرى لا اعتراض عليها، ولكنها ليست الرحلة ولا هدفًا من أهدافها، إنما هي حادثة عارضة اكتنفت الرحلة، والبحث العلمي يجب أن يقف عند الباعث على الرحلة، والهدف المرحلي والنهائي لها.

الموقف الثالث: التجارة مع خديجة

يتميز رجال الأعمال وسيدات الأعمال أيضًا بصفات أساسية تؤهلهم للقيام بأعمالهم في عالم التجارة والمال، ومن هذه الصفات: الدقة والانضباط، وتحمل بذل الجهد لفترات طويلة دون كلل أو ملل، ومتابعة الأعمال متابعةً تامةً، والحرص الشديد على الوقت لأنه يتحول في عالم التجارة إلى قيم مالية ملموسة، والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد، ودراسة حركة السلع والمنتجات داخل القطر وخارجه، والوعي العام باحتياجات السوق، والفهم العميق لآليات السوق (القواعد التي تحكم الحركة داخل السوق) والاستفادة من كل شيء، وتحويله إلى ربح ينضم لرأس المال.

والسيدة خديجة – رضوان الله تعالى عليها – كانت من سيدات الأعمال (بالتعبير المعاصر) في مكة، وابن هشام يقول عنها: «كانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرةً، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم».

هذا وصف دقيق لسيدات أعمال من الطراز الجيد، فهي امرأة تاجرة لم يتكون لديها المال بطريق الميراث، ولكنها جمعته بجهد وتخطيط وتدبير، وهي ذات شرف ومال، أي أصبح لديها المال المتراكم من حصيلة الربح من التجارة؛ تستأجر الرجال في مالها لأن المال تضخم لديها، وأصبحت في حاجة إلى أنشطة جديدة وبعيدة عن مكة.





ولأن كل تجمع سكاني له قدرة محددة في استهلاك منتجات معينة، لذلك يلجأ التجار إلى نقل أنشطتهم إلى أماكن مختلفة، وهو ما يُعَبر عنه في الوقت الحاضر (بالاستيراد والتصدير)، وخديجة كانت تستأجر الرجال في مالها، وتجعل لهم شيئًا من الربح (نظام العمولة) يُعْطَى لهم بعد كل رحلة أو صفقة، وأصبحت خديجة مع الأيام من أغنى سيدات مكة على الإطلاق.

ويبقى سؤال حائر يلح على الذهن: لماذا لم تتزوج السيدة خديجة من أي رجل من الذين كانت تستأجرهم للعمل عندها؟

إن من عادة رجال وسيدات الأعمال تقييم من يعمل معهم بحسب جهده المبذول، وتوفيقه في هذا الجهد، وفي عالم التجارة والمال لا مكان للكسول، المتواكل، أو الغبي، ولا شك أن السيدة خديجة كانت تختار من يعملون معها بدقة بالغة، ولكنها لم تجد فيهم من يحقق أملها في تحقيق أعلى درجات الربح ومع مهارة عالية في الإدارة، وأمانة في الأداء، ولذلك كان النبي (ﷺ) هو المثل الذي تطمح إليه السيدة خديجة من حيث بذل الجهد الكثير المبارك، والقيادة والتخطيط للعمل والأمانة، ووجدت أن مالها تضاعف.

نعم؛ روى لها ميسرة كثيرًا من الصفات الكريمة، ولكن سيدة الأعمال يشدها التفوق في مجالها – التجارة – وتصبح الصفات الكريمة عوامل مساعدة بعد ذلك.

ماذا لو قال لها ميسرة إنه (ﷺ) كان كسولًا لا يحب العمل وبذل الجهد؟ أكانت تنفعها بعد ذلك كثرة الصفات الطيبة؟

إن العامل الحاسم في هذه القصة كان هو نجاح النبي (ﷺ) في تجارة خديجة، وابن هشام لم يغفل هذا في عرضه للأحداث: «فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به، فأضعف أو قريبًا ...».[1]

هذا النص يحتاج إلى دراسة متأنية من الناحية الاقتصادية، فمنذ كانت التجارة بين البشر كان الربح جزءًا – قل أو كثر – من رأس المال ولكن القيادة الحكيمة، والإدارة الرشيدة التي قام بها النبي (ﷺ) جعلت الربح قدر المال أو قريبًا من ذلك.

وفي مواجهة هذا النجاح في أداء العمل – تنمية المال – تقف امرأة تملك حاسة وذكاء

١- ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ١٧١، ط مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٩٠.





التاجر ومهارة رجال الأعمال، ولكنها تقف مشدوهةً متعجبةً مما ترى وتسمع، فقد أدركت أن في مكة من هو أقدر على إدارة المال، وإنشاء الأعمال منها، ولذلك لم تجد حرجًا في إعلانها له أنها ترغب فيه، وقد رغبت عن الكثيرين قبله.

وعاطفة السيدة – خديجة – رضوان الله تعالى عليها – تجاه النبي (ﷺ) كانت نتيجةً لنجاحه في إدارة تجارتها – مع ما يتحلى به من كرم في الخلق وأمانة في الأداء – ولم تكن سببًا لإدارة هذه التجارة، فهي سيدة قائدة حازمة تملك عاطفةً عاقلةً، ولا تسيرها العواطف وحدها.

ويصور هذا ابن هشام بقوله: «وكانت خديجة امرأةً حازمةً، شريفةً، لبيبةً، مع ما أراد الله – تعالى – بها من كرامته، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله (ﷺ)، فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك،[1] وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالًا، كل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليه».[2]

ذكرت خديجة – رضي الله عنها – كثيرًا من الصفات الطيبة لرسول الله (ﷺ) ومن هذه الصفات صفة الأمانة، وبعض العلماء يقف بالأمانة، عند حد المحافظة على الشيء المؤتمن عليه، وهي بذلك صفة تتجه إلى السلب، غير أن صفة الأمانة التي كانت تقصدها خديجة – رضوان الله تعالى عليها – وهي تحدث بها رسول الله (ﷺ) كانت الأمانة الفاعلة التي تشمل المحافظة على الوقت لأنه جزء من رأس المال المستخدم في التجارة، واختيار كافة الظروف المناسبة للعرض والطلب ودراسة آليات السوق، وتفعيل كل درهم لصالح التجارة والعائد منها.

فعند الشخصيات الكبيرة تكون المعاني كبيرةً وجامعةً، ولعل الله – سبحانه وتعالى – قد اختار للنبي (ﷺ) السيدة خديجة لمزيد من الخير للرسالة الخاتمة.

١- السلطة: من الوسط كالعدة والزنة، والوسط من أوصاف المدح والتفضيل إذ جاء في ذكر النسب والشهادة (نثل من الروض الأنف ١/ ٢١٢ تحقيق عبد الرؤوف سعد).

٢- سيرة ابن هشام ١/ ١٧٢.





فسيدة الأعمال سيدة لها عقل كبير، وحكمة مستمدة من دوران حركة التجارة بين الربح والخسارة، وحرص شديد على الوقت وإحساس بخطورته، ثم بعد ذلك تمييز للربح الحقيقي الدائم والربح المخادع الزائف.

ومن هنا تزوجت السيدة خديجة النبي (ﷺ)، وبقيت معه حتى انتهت معظم الظروف الصعبة التي كانت تكتنف الرسالة في بدايتها، فالسيدة خديجة لم تكن سيدةً عاديةً يتزوجها الرجل للتمتع بها وإنجاب الأطفال منها فحسب، فهذا النوع من السيدات ليس مؤهلًا لتحمل أعباء الرسالة، ومعاناة واقع، إنهن يعشن على هامش الحياة، يُولدن ويرحلن من غير أن يؤثرن فيها بشيء، ويعتقدن أن المهمة الأولى لهن الفراش وإنجاب الأطفال.

إن سيدة الأعمال طراز خاص للنساء – لاسيما خديجة – لقد فُطِرت على حب العمل والكدح، والقيادة والريادة، ولذلك تُوصَف السيدة خديجة بهذه الصفات: حازمة، شريفة، لبيبة وهذا ما يفسر لنا سر تحملها مع النبي (ﷺ) أعباء الرسالة العظيمة، وكيف صبرت على الأهوال التي تعرضت لها، وكيف كانت تثبت في مواقف كثيرة لا يستطيع الثبات فيها الكثرة المتضاعفة من الناس.

فهي لم تتصف بالثبات فحسب، بل كانت تثبت الرسول (ﷺ) حين يتعرض للأحداث الجسام، وكانت دائمًا ترفع شعارًا تردده قولًا: والله؛ إن الله لن يخزيك أبدًا! وليس هذا غريبًا على سيدة احترفت العمل والتجارة وتنمية المال.

ولو كان المسلمون في هذا العصر يحترمون العمل العمراني ويولون وجوههم شطره بعد البيت الحرام، لخرج من بين صفوف هذه الأمة سيدات كثيرات فضليات يسرن على منهج خديجة – رضوان الله تعالى عليها – وكن قد أُعْطِين مساندةً جيدةً للرسالة الخاتمة – كما فعلت خديجة – رضوان الله تعالى عليها – لأن قِيم العمل والكفاح تُضَاف إلى بناء النفس الإنسانية أو تسلب منها اتجاه الشعوب.

الموقف الرابع: سلمان الفارسي والرق

سلمان الفارسي رجل من أهل أصبهان[1] من قرية يُقَال لها جي؛ كان أبوه سيد قريته، وكان سلمان أحب الناس إليه لدرجة أنه حبسه في المنزل كما تُحْبَس الفتاة، وظل يعلمه

١- أصبهان: بمعنى الفرس أو العسكر فهي بمعنى أرض الخيل أو العسكر، فهي جملة واحدة أرض العسكر.





المجوسية حتى أصبح قطن النار – أي راعيها – الذي لا يتركها تخبو ساعةً واحدةً في اليوم والليلة.

وفي يوم شُغِل والده ببناء فأرسله إلى مزرعته – ضيعته – وأمره ألا يتخلف في العودة، وفي طريقه إلى المزرعة مر بكنيسة من كنائس النصارى، فسمع لأول مرة في حياته صلاتهم فأُعْجِب بها، ومال إليها ووجد أنها أفضل لديه من عبادة النار، وسألهم عن أصل هذا الدين فقالوا له أن أصل هذا الدين يوجد بالشام.

فرجع إلى أبيه وأخبره بما رأى، وأخبره بميله إلى دين النصارى، فخاف عليه وجعل في رجليه قيدًا وحبسه في بيته، ولكن سلمان بدأ يرسل بعض خدمه إلى النصارى وعلم منهم بقدوم تجار من الشام، فلما قدم الشام سأل عن أكثر الناس حفظًا لهذا الدين، فأشاروا عليه بالذهاب إلى الأسقف في الكنيسة.

وذهب، ولكنه كان رجل سوء يجمع الصدقات، ولا يوزعها على الفقراء، فكرهه سلمان كرهًا شديدًا ودل عليه أهل البلدة، فأخرجوا الكنز وصلبوا الأسقف ورجموه، وجاءوا بغيره، فكان رجلًا صالحًا للغاية وزاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة.

وظل سلمان يخدم هذا الرجل، ويتعلم منه حتى وافته المنية، فطلب سلمان أن يرشده إلى من يعلمه، فأرسله إلى أسقف بالموصل، فذهب إليه وخدمه حتى جاء أجله، وقبل أن يموت دله على أسقف بنصيبين.

فذهب إليه وأقام عنده حتى أوشك الأسقف على الموت فسأله ما سأل سابقيه، أن يدله على رجل قائم على هذا الدين فأرسله إلى أسقف بعمورية في أرض الروم، وتاجر سلمان حتى أصبح غنيًّا.

فلما حضر الموت أسقف عمورية قال له سلمان: أنت تعلم أني جئتك من عند أصحابك؛ فأرسلني إلى رجل يعلم أمر هذا الدين مثلكم، فقال له الأسقف لم يعد أحد يعلم من أمر هذا الدين ما كنا نعلم، وقد جاء زمان نبي يخرج من أرض العرب يدعو إلى دين إبراهيم ويهاجر إلى أرض بين حرتين بهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بهذه البلاد، فافعل.

وبقي سلمان بعمورية بعد موت صاحبه مدةً يتاجر فيها ويتكسب حتى رأى جماعةً من





التجار العرب، فطلب منهم أن يرحل معهم إلى أرض العرب، ويعطيهم ما عنده من بقرات وغنم، فأخذوا ماشيته وحملوه معهم، ولكنهم غدروا به في الطريق وباعوه لرجل يهودي فباعه لابن عمه من بني قريظة، فحمله إلى المدينة.

وبقي بها حتى هاجر إليها المصطفى (ﷺ)؛ فأخذ سلمان – رضي الله تعالى عنه – شيئًا من طعام كان قد جمعه، وذهب به إلى رسول الله (ﷺ) وقال له هذا شيء من صدقة، فأمر رسول الله (ﷺ) أصحابه أن يأكلوا، ولكنه لم يأكل، ففهم سلمان أن هذه علامة.

وذهب إليه مرةً أخرى بطعام، قال: إنه هدية، فأكل منه النبي (ﷺ) ففهم سلمان أن هذه علامة أخرى، ومرةً ثالثة ينظر إلى ما بين كتفي النبي (ﷺ) فيرى خاتم النبوة، ثم جلس إلى النبي (ﷺ) وأعلن إسلامه، ولكنه لم يشارك في غزوة أحد، بسبب الرق وملك اليهودي له. [1]

تحرير سلمان من الرق

خاض الإسلام معارك كثيرة وسلمان الفارسي بعيدًا عن مساندة الإسلام في تلك المعارك بسبب الرق، وكان ذلك يحزنه كثيرًا ويسبب له ألمًا له لا حدود له.

وفي يوم من الأيام جاء سلمان الفارسي إلى النبي (ﷺ) وشكا لله ما يعانيه من قلق وحزن بسبب رقه وبعده عن مناصرة الإسلام، وهو يخوض أوليات معاركه الفاصلة بين الحق والباطل.

فقال له النبي (ﷺ): كاتب يا سلمان، فكاتب سلمان صاحبه اليهودي على أن يزرع له ثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية، وذهب إلى النبي (ﷺ) يخبره بشروط اليهوديٍ في العتق وهي شروط صعبة، بل مستحيلة من الناحية العملية، فكيف لعبد لا يملك شيئًا، أن يقوم بزراعة ثلاثمائة نخلة، وتسليم أربعين أوقية لمالكه.

فقال النبي (ﷺ) لصحابه أعينوا أخاكم، فأعانوه بالنخل كل بحسب مقدرته، فكان الرجل يحضر عشرين فسيلةً (وديةً) وكان الرجل يحضر ثلاثين، وبعضهم كان يحضر عشر أو خمس فسائل، حتى تم له جمع ثلاثمائة فسيلة.

غير أن هذا لا يحل مشكلة سلمان لأنه لا بد من زراعة هذه الفسائل ورعايتها وهي تحتاج

١- نُقِل بتصرف من سيرة ابن هشام ١/ ١٩٨-٢٠٤.





إلى عامين، أو ثلاثة أعوام، وأمره النبي (ﷺ) أن يحفر حفرة لكل فسيلة فإذا ما انتهى من الحفر عاد إليه.

وذهب معه النبي (ﷺ) وبعض الصحابة، وكانوا يقربون كل فسيلة من حفرتها ويقوم النبي بزراعتها حتى انتهى من الثلاثمائة فسيلة، ويؤكد الإمام أحمد[1] في روايته لهذه الحديث أن النبي (ﷺ) زرع الثلاثمائة إلا واحدةً زرعها سلمان وهي الوحيدة التي ماتت من الفسائل.

والبخاري وغيره يرون أن هذه من بركات النبي (ﷺ) وهذا أمر طبيعي لا شك فيه بالنسبة للنبي (ﷺ) ولكن لأن السيرة النبوية كُتِبت بطريقة خاصة فإن أحدًا لم يلتفت إلى معمل الخبرة بالزراعة بجانب معمل البركة.

فلا شك أن النبي (ﷺ) قضى أربعين سنةً قبل البعثة، قضاها في كد وكدح وعمل متواصل في مجالات كثيرة، بدأت برعي الغنم وانتهت بالتجارة مرورًا بالزراعة، لأن وضع الفسيلة في الأرض يحتاج بالفعل لخبير، لأنها لو ارتفعت عن وضعها المطلوب سنتيمترًا واحدًا ماتت مهما كان العلاج، ولو انخفضت كذلك سنتيمترًا واحدًا كان الموت هو النهاية لها.

فلو كانت المسألة مسألة بركة فقط لباركها النبي (ﷺ) وهو في بيته، ولكنها الخبرة العملية التي لا تجد – عبر التاريخ الإسلامي – اهتمامًا من بعض كتاب السيرة.

وقام سلمان برعاية الفسائل فترةً ليست بالقصيرة حتى تسلمها اليهودي نخلًا يانعًا، وعاد للنبي (ﷺ) يسأله المساعدة في المال، فأعطاه مثل بيض الدجاج من ذهب، وقال له: خذ هذه فأدها مما عليك، فقال سلمان: وأين هي مما علي؟

قال رسول الله (ﷺ) خذها فإن الله تعالى سيؤدي عنك. قال سلمان فوزنت لهم منها أربعين أوقيةً فأوفيتهم حقهم منها،[2] وبهذا أُعْتِق سلمان الفارسي وشهد مع رسول الله (ﷺ) الخندق حرًّا، ولم يفته معه مشهد بعد ذلك.

***

١- أخرجه أحمد ٥/ ٤٤٠.

٢- في تكثير بركة واضحة ومتكررة في المال والطعام لرسول الله (ﷺ) ولكن في زراعة النخيل اجتمعت البركة مع الخبرة فكان النماء، ليتنا نستوعب هذه الدروس الكبيرة.





التعليق

إذا أردنا أن نصور أعظم ما بذلته البشرية في بحثها عن الحقيقة، فلم نجد أبلغ من قصة سلمان الفارسي، فقد قضى شطرًا كبيرًا من عمره يبحث عن الحقيقة، وضحى في سبيل ذلك بزهرة شبابه، وأفضل سنوات عمره.

يقول الأستاذ خالد محمد خالد عن سلمان الفارسي: «أي تبتل للحقيقة.. وأي ولاء لها، هذا الذي أخرج طائعًا مختارًا من ضياع أبيه، وثرائه ونعمائه إلى المجهول بكل أعبائه ومشاقه؛ ينتقل من أرض إلى أرض، ومن بلد إلى بلد ناصبًا، كادحًا عابدًا، يتفحص ببصيرته الناقدة الناس، والمذاهب والحياة، يظل في إصراره العظيم وراء الحق، وتضحياته النبيلة من أجل الهدي، حتى يُبَاع رقيقًا، ثم يثيبه الله – تعالى – ثوابه الأوفى، فيجمعه بالحق ويلاقيه برسوله (ﷺ) ثم يعطيه من طول العمر، ما يشهد معه بكلتي عينيه، رايات الحق تخفق في كل مكان من الأرض . . . ».[1]

والحديث عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي – رضي الله تعالى عنه– ذو شجون؛ فالكلام عن العظماء لا تتحمله الكتب مساحةً ووصفًا، ومع هذا لا بد من الوقوف مع هذا الصحابي عند جانب العمل العمراني لقصته العظيمة في عدة مواقف:

الموقف الأول:

من المُسَلم به أن سلمان الفارسي – رضي الله تعالى عنه – ظُلِم في رقه لأنه خرج من بلدته باحثًا عن الحقيقة، ولم يكن رقيقًا بالمعنى المعروف في البداية، ومع هذا ظل رقيقًا حتى بعد إسلامه.

الموقف الثاني:

إن النبي (ﷺ) لم يستخدم نفوذه لتحرير سلمان من الرق، بل ترك الأمور تسير سيرًا طبيعيًّا، حتى يحافظ على حق اليهودي قبل سلمان الفارسي.

١– خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص٥٦، دار ثابت، ١٩٩٠.





الموقف الثالث:

وهو يخالف ما عليه الذهنية المعاصرة، فكل المشاكل التي يتعرض لها الناس يُرْجَى حلها بطرق خالية، ولا يحاولون حلها بأسلوب عملي كما فعل رسول الله (ﷺ) مع سلمان الفارسي – رضي الله تعالى عنه – حين قال له كاتب يا سلمان.

وفي العصر الحديث أناس ليس لهم مثل ما لسلمان الفارسي، ولا معشار ما عنده من كرامة وبركة ومع هذا يُنْسَب إليهم أنهم قاموا بحل مشاكلهم، ومشاكل غيرهم بطرق تشبه معجزات الأنبياء؛ إن لم تتفوق عليها في كثير من الأحيان.

وهؤلاء الأشخاص المنسوب إليهم هذه الكرامات لم يعرفوا هذه الأشياء عن أنفسهم حال حياتهم، ولم يقولوا بذلك ولكن الذهنية العربية تهوى أن تنسب إليهم هذه الأشياء وهم منها براء، فهي ذهنية نشأت وترعرعت على فكر ألف ليلة وليلة، وهو أبعد في محتواه العام عن الخيال نفسه.

فسلمان العظيم بعد هذه الرحلة يُؤْمَر بمكاتبة صاحبه اليهودي – أي يدفع له ثمن نفسه ويحررها من الرق – ولأن سلمان الفارسي من أصحاب الهمم العالية حتى في رقه، فقد كان مخلصًا في عمله مما جعل اليهودي يتمسك به، ويُتَرجم ذلك التمسك إلى المغالاة في المكاتبة حتى استحال تنفيذ رغباته لولا تدخل النبي (ﷺ) والصحابة بالمساعدة.

الموقف الرابع:

إن نقل وزراعة ثلاثمائة نخلة ليس بالأمر الهين، ولكنه هو الطريق العملي الوحيد لحل مشكلة سلمان الفارسي، ولو عرض على النبي (ﷺ) طريقًا غير ذلك ما وافق عليه، إذ رأى أنه يضر بمصالح اليهودي، أو يعطل طاقة سلمان في العمل العمراني.

الموقف الخامس:

إن زراعة النخيل في أرض اليهودي من الأعمال التي لا تستريح لها النفس ذات النظرة القاصرة، لأنها ترى أن هذا خير يُصْنَع لعدو، ولكن من يمعن النظر يرى أن في هذا العمل





تنمية لثروات المدينة بصفة عامة، فإنتاج هذا النخل سيُبَاع في أسواق المدينة، وسيعمل على خفض السعر بالنسبة للمستهلكين من المسلمين، وهذا ما قصد إليه الحبيب (ﷺ) حين شارك في هذا العمل الكبير، وقد سبق بذلك العمل أساتذةَ الاقتصاد في العصر الحديث.

وفي النهاية فإن قصة سلمان الفارسي ما يشد من أزر المسلمين ويقوي عزيمتهم، ويدفعهم إلى العمل الجاد والمنتج، ويجعلهم ينظرون إلى مشاكلهم وإلى البدائل الفاعلة في حل هذه المشاكل نظرةً عمليةً تغوص في أرض الواقع ولا تحلق في سماء الخيال.



أهم المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- صحيح البخاري.

٣- صحيح مسلم.

٤- سنن أبي داود.

٥- سنن ابن ماجه.

٦- سنن الترمذي.

٧- سنن النسائي.

٨- مسند الإمام أحمد.

٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط إحياء التراث العربي ببيروت، بدون تاريخ.

١٠- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، أيدنسنك، ط دار الدعوة، استانبول - تركيا.

١١- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد القومي، د. يوسف القرضاوي، ط وهبة الأولى ١٤١٥ ه.

١٢- أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، الشيخ أحمد حسن الباقوري، ط دار المعارف الثالثة، بدون تاريخ.

١٣- اليهودية في القرآن، عبد الكريم الخطيب، ط دار الشروق الثانية ١٤٠١/١٩٨١ ه.

١٤- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، السيد أحمد الهاشمي، ط مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة ٢٦، ١٩٦٥/ ١٩٨٥.

١٥- رجال الفكر والدعوة، أبو الحسن الندوي، ط دار القلم.

١٦- قيم حضارية في القرآن الكريم، توفيق سبع، ط دار المنار، القاهرة، ١٩٨٤.

١٧- تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع، محمد الغزالي، ط دار الشروق الثانية ١٤١١ ه/ ١٩٩١ م.



١٨– العمل في الإسلام، د. عبده عيسى، ط دار المعارف، بدون تاريخ.

١٩– التفسير الموضوعي، محمد الغزالي، ط دار الشروق الأولى، ١٩٩٥.

٢٠– الإسلام حضارة الغد، د. يوسف القرضاوي، ط وهبة الأولى، ١٤١٦ ه.

٢١– الدعاة إلى الله في القرآن ومناهجهم، د. محمد طلعت أبو صير، ط المطبعة العربية الحديثة، ١٤٠٦ ه.

٢٢– فقه الدعوة من حياة موسى، د. محمود محمد عمارة، ط التوفيقية، بدون تاريخ.

٢٣– جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري، نشر دار المعارف، بيروت، ١٤٠٦ ه/ ١٩٨٦م.

٢٤– الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي، ط دار المعرفة، بيروت.

٢٥– الإسرائيليات والموضوعات، د. محمد محمد أبو شهبة، ط دار مكتبة السنة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨ه.

٢٦– القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، ط دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٦ه/١٩٩٥ م.

٢٧– معالم التنزيل، الإمام البغوي، ط دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ ه.

٢٨– الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، ط مناهل العرفان.

٢٩– روح المعاني، الألوسي.

٣٠– أحكام القرآن، ابن العربي.

٣١– الكشاف، الزمخشري.

٣٢– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الإمام البقاعي، ط أولى دائرة المعارف العثمانية بحيدر آياد الركن، ١٤٠٠ه/ ١٩٨٠ م.

٣٣– في ظلال القرآن، سيد قطب، ط الشروق، بيروت، ط ١٣، ١٤٠٧ه.

٣٤– الدعوة الإسلامية، محمد الغزالي، ط وهبة الثانية، ١٤٠٥ه.

٣٥– العقل المسلم والرؤيا الحضارية، عماد الدين خليل، ط دار الحرين بدون تاريخ.

٣٦– الحل الإسلامي لمشكلة الغذاء، د. حلمي عبد المنعم صابر، ط. دار الحرمين، ١٤٠٤ه/١٩٨٣م.





٣٧- تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ط الاتحاد الإسلامي العالمي، الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٨- المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، ط دار الصحوة، الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٣٩- ليس من الإسلام، محمد الغزالي، ط دار الكتب الإسلامية، الخامسة، ١٤٠٣هـ.

٤٠- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، محمد الغزالي، ط وهبة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٤١- خطب الشيخ محمد الغزالي، محمد الغزالي، ط دار الاعتصام، ١٩٨٩م.

٤٢- فقه الدعوة من قصة موسى، أ. د. محمود محمد عمارة، ط دار الطباعة المحمدية، الثانية، ١٤١٠م.

٤٣- الصراع بين الإيمان والمادية، أبو الحسن الندوي، ط دار القلم، الرابعة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٤٤- مراجعات في الفكر والدعوة، عمر عيد حسن، ط المعهد العالي للفكر، الأولى، ١٩٩١م.

٤٥- السيرة النبوية، ابن هشام، ط مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٩٠م.

٤٦- الروض الآنف، السهيلي.

٤٧- رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، ط دار ثابت، ١٩٩٠م.

٤٨- المغازي والسير، ابن إسحاق.

٤٩- كنز العمال - المتقي الهندي.

٥٠- مقدمة ابن الصلاح، ط مكتبة المثنى بالقاهرة.

٥١- تدريب الراوي، ط دار الكتب الحديثة - الثانية.

٥٢- سير أعلام النبلاء، للذهبي، ط مؤسسة الرسالة، الحادية عشر، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.





فهرس الكتاب





